التزكية

على منهاج النبوة

المرحلة الأولى

مرحلة الطالبين

الباب الأول

مقدمات في التزكية

الدكتور معاذ سعيد حوى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾
[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها
أنت وليها ومولاها»
أخرجه مسلم

مقدمة الكتاب

ـ الإنسان عالَم عظيم، خَلَقَه اللهُ بقدرات وإمكانات تتناسب مع ما أراد الله منه؛ من إيمان وعبادات وأعمال وعمارة للكون.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [هود: ٦١].

ـ وخَلَقَ الله في الإنسان من الطبائع والاستعداد والاختيار ـ ابتلاءاً له واختباراً ـ ما يمكن معه أن يكون عاملاً بالخير الذي أراده الله منه، أو يكون عاملاً بالشر الذي نهاه عنه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ـ وسخر الله للإنسان ما في السموات والأرض؛ ليستعمل كل شيء وسيلة لعبادة الله والتقرب إليه وإقامة شرعه وحكمه، مستعيناً بأخيه الإنسان

على تحقيق ما خلقوا له، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢].

ـ وأعطى الله الإنسان قَلْباً ذا عواطف وإحساسات وميول، ليكون متعلقاً بالله، ليكون بحاله قائلاً: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فهو يشتغل بالعبادة ليكون ذاكراً لله ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤]، وإذا اشتغل بالدنيا والمال والأهل لحاجته إليها لم تشغلْه عن الله وذكره، فلا يكون حالهم حال من قال: ﴿ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا ﴾ [الفتح: ١١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون:٩].

ـ كل ذلك لنصل إلى صلاح الفرد والمجتمع، على وجه يسعى فيه الجميع إلى إقامة العدل والإحسان فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ هذه النفس الإنسانية التي يجب أن تتجه نحو الصلاح والخير والحق وتقوم به؛ لا يعلم حقيقتها وأحوالها وعوالمها وقدراتها وتقلباتها وطريق صلاحها وعلاج فسادها إلا خالقها، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

فلا يجوز أن يَحكُمَ الإنسانَ في حياتِه بشرٌ قاصرُ العلم كثيرُ الأوهام محكومٌ بالشهوات، وإنما يَحكُمُه اللهُ العليم الخبير، الذي يعلم المنهج الذي يصلح لك، لأنه خلقك ويعلم أسرارك ومصالحك.

ولأجل بيان المنهج الصالح للإنسان وتمثيله بأنموذج كامل؛ أرسل الله رسوله ﷺ.

وسعياً إلى إظهار معالم هذا النهج النبوي في تزكية النفس وإصلاحها؛ كان هذا الكتاب.

يبين جوانب تزكية النفس بما فيها من عقل وقلب وجسد.

مرتباً ذلك على مراحل، فالمرحلة الأولى تبين ما يحتاجه كل إنسان من التزكية والصلاح، وهو الحد الأدنى الذي ينبغي أن يتحلى به كل مسلم، ويجب أن يظهر في حياة المجتمع المسلم ومعاملاته.

مقدماً بمقدمات حول علم التزكية وأهمية التزكية، ويتبين من خلالها ما هي الحاجة الباعثة على تأليف هذا الكتاب، وما هو منهج المؤلف فيه.

ثم يبين الكتاب تزكية العقل وما هي أفكاره واعتقاداته التي يكون بها صالحاً.

ثم تزكية الجسد، وما هي أعماله التي يكون بها صالحاً.

ثم أخلاقه، ثم أحوال قلبه، ثم المعينات والعوائق والثمرات.

وسيتوالى نشر أجزاء هذا الكتاب بمراحله المختلفة، كلما أنجز منه جزء، إن شاء الله.

وبعد أن ننهي المرحلة الأولى التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم، ننتقل إلى المرحلة الثانية والثالثة ليعرف المسلم طريق ترقِّيه إلى الإحسان والصديقية ومقامات التزكية العالية.

أسأل الله السداد والهداية والتوفيق والقبول، وهو الولي المستعان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مراحل تزكية النفس

المراحل التي يمر بها طلاب التزكية
حتى يتحققوا بصفات التزكية على تمامها

- **المرحلة الأولى مرحلة المبتدئين**: مرحلة الطالبين.
- **المرحلة الثانية مرحلة المتوسطين**: مرحلة السالكين.
- **المرحلة الثالثة مرحلة المتحققين**: مرحلة الشيوخ.

المرحلة الأولى

مرحلة الطالبين

وفيها الأبواب الآتية:

- **الباب الأول**: مقدمات في التزكية.
- **الباب الثاني**: تزكية العقل والفكر.
- **الباب الثالث**: التزكية العملية.
- **الباب الرابع**: التزكية الأخلاقية.
- **الباب الخامس**: تزكية القلب.
- **الباب السادس**: المعينات والعوائق.

الباب الأول

مقدمات في التزكية وعلم التزكية

وفيه المقدمات الآتية:

- **المقدمة الأولى**: في تعريف التزكية والنفس.
- **المقدمة الثانية**: في أهمية التزكية ومكانتها في دين الله وفي حياة الإنسان.
- **المقدمة الثالثة**: في حُكْمُ التزكية ومكانة علم التزكية بين العلوم ونشأته وتسمياته.
- **المقدمة الرابعة**: المنهج العلمي والأساس الشرعي لهذا الكتاب.
- **المقدمة الخامسة**: تشخيص حالة الإنسان في أي مرحلة هو من التزكية؟.

المقدمة الأولى

في تعريف التزكية والنفس

المقدمة الأولى

في تعريف التزكية والنفس

تعريف التزكية:

تعريف التزكية لغة:

أصل التزكية والزكاء والزكاة يدور حول عدة معاني، هي:

الطهارة، والنَّماء والزيادة والبَركةُ، والمَدْح، والصلاح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث(١).

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٤، ص٣٥٨-٣٥٩، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج٢، ص٣٠٧-٣٠٨. وخلاصة ما فيهما:

زَكا يَزْكو زَكاءً وزُكُوّاً: **النَّماء والزيادة والرَّيْعُ**، في قوله تعالى: وقولِه سبحانه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: ١٣] معناه: وفعلنا ذلك رحمةً لأبويه **تَزْكِيةً** له؛ والزَّكاةُ: **الصلاحُ**، ورجل تقيٌّ زَكِيٌّ: أي زاكٍ من قوم أَتْقياء أَزْكِياء، أي صالحين، قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]؛ وقرئ: ما زَكَّا منكم، فمن قرأ ما زَكَا فمعناه: ما **صَلُح** منكم، ومن قرأ ما زَكَّى فمعناه ما أَصْلَح، ولكن الله يُزَكِّي من يشاء: أَي يُصلح. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] أي: خيراً منه عملاً **صالحاً**.

وقد زكا زَكاءاً وزُكُوًّا وزَكِيَ وتَزَكَّى وزَكَّاه الله وزَكَّى نفسه تَزْكِيةً: **مدَحها**، منه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] أي: فلا **تمدحوها**.

والـزَّكاةُ: زَكاةُ المـال، معروفة وهو تطهيره، والفعل منه زَكَّى يُزَكِّـي تَزْكِيةً، منه: قال تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبـة: ١٠٣]: **تُطَهِّرُهم** بها، وقيل لِما يُخْرَج من المال للمسـاكين من حقوقهم زَكاةٌ؛ لأَنه تطهيرٌ للمال وتَثْميرٌ وإِصْلاحٌ ونماء. وقال تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] أي: نفساً **طاهرة** بريئة من الذنوب.

والزكاة: الطَّيب، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] أي: **أطيب طعاماً**.

فأما مدح الإنسان نفسه فقد ذمه الله تعالى(١)، وأما باقي المعاني فهي داخلة في معنى التزكية المطلوبة شرعاً، والتي نتحدث عنها، وهي تتضمن جانبين: جانب التطهير، وجانب النماء والزيادة والترقي، وكلاهما عامل في صلاح الإنسان.

تعريف التزكية اصطلاحاً:

لا يخرج معنى التزكية اصطلاحاً عن معناه اللغوي، فهي:

صلاح الإنسان بطهارتِه من السوء والباطل، وارْتقائِه في الخير والحق(٢).

وهذا التعريف هو وصف لحقيقة التزكية من حيث هي، وتطلق التزكية

---

(١) في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] قال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن ص٢١٤: «وتزكية الإنسان نفسَهُ ضربانِ: أحدُهما بالفعل، وهو محمود وإليه قُصِدَ بقوله ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ وقوله ﴿**قد أفلح من تزكى**﴾ والثاني: بالقول كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ ونهيه عن ذلك تأديب لقُبْحِ مدْحِ الإنسانِ نفسَه عقلاً وشرعاً، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسُنُ وإن كان حقّاً؟ فقال: مدْحُ الرجلِ نفسَه».

(٢) قال المناوي في التعاريف ص١٧٤: «التزكية: إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم، قاله الحرالي، وأصل التزكية: نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان»، وقال أبي الشيخُ سعيد حوى رحمه الله وجزاه عني خير الجزاء: «فزكاة النفس: تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية: تطهّر وتحقق وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة، وماهيته، وثمراته الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك؛ في التعامل مع الله عز وجل، ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح على أمر الله»، المستخلص في تزكية الأنفس: ص٣. وقال في موضع آخر: «تزكية النفس تعني باختصار: تطهيرها من الشرك وما يتفرع عنه، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه، وتخلقها بأسماء الله الحسنى، مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية، وكل ذلك من خلال الاقتداء برسول الله ﷺ»، المستخلص ص١٥٣.

ويراد بها عملية التزكية وفعل التزكية، فتكون التزكية عندئذ بمعنى: إصلاح الإنسان بتطهيره من السوء والشر، وتنمية الخير عنده، وتَرَقِّيه فيه.

وهذا الكتاب كما يحرص على وصف التزكية وبيان أوصاف الإنسان حين يكون مزكىً؛ يحرص على بيان ما يؤدي إلى التزكية(١)، وما تحصل به التزكية من عقائد وأقوال وأعمال وغيرها، وكل ذلك داخل في معنى التزكية.

وإنما يوصف الإنسان بالصلاح بقدر ما يكون عنده من الطهارة والارتقاء، وبقدر ما يَطْهُرُ الإنسان ويرتقي؛ بقدر ما يكون مُزكىً أو زَكِيّاً.

وطهارة الإنسان من السوء تشمل طهارة عمله وطهارة قوله، تشمل ظاهره وباطنه، تشمل طهارة عقله وقلبه وجسده، تشمل طهارة اعتقاداتِه وأفكاره ونياته ورغباته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وأحواله، وتشمل طهارته من التأثُّر بما حوله من بيئة فاسدة ووسوسة شيطانية.

وترقية الإنسان في الخير تشمل ذلك كله، فتشمل ترقية العمل والقول والظاهر والباطن...

ومعرفة الخير والسوء ترجع إلى الله ورسوله ﷺ، فكل ما كان حسناً خيراً في شرع الله فهو خير وحَسَن، وكل ما كان سوءاً وشراً في شرع الله فهو سوء

(١) مثال ذلك أن نقول: إن من التزكية أن يكون الإنسان كريمًا، فالكرم وصف من أوصاف التزكية في الإنسان، وحتى يتحقق الإنسان بهذا الوصف يحتاج إلى أمر آخر، وهو أن يعتقد وجوب طاعة الله، وأن الله أوجب الإنفاق في أموال وفي حالات معينة، ثم إن علم الإنسان بأنه إذا كان كريماً متصدقاً محسناً وِفْق أمر الله وشرعه؛ فإن الله يُخلفه ما أنفق، عِلْمُه هذا محفِّز له على الإنفاق، كما يمثل اعتقاداً يصرفه عن خُلُق البخل، فلا يبخل بما وجب عليه، فهذه المعتقدات تكون سبباً في التحقق بصفة الكرم، واعتقاد هذه الأمور هو من التزكية بحد ذاته، وهو من التزكية باعتباره وسيلة لصفة تزكوية هي الكرم، فالتخلق بالكرم أيضاً هو من التزكية.

وشر، والعقول مهما عَقَلَت واهتدت إلى معرفة الخير والسوء؛ فإن عِلم الله فوق كل عِلم، بل هو سبحانه الذي أعطى خلقه بعض العلم، قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وحيثما ذكرت التزكية في القرآن الكريم فهي شاملة لهذين المعنيين: التطهير والترقية، كما بيّنه كثير من المفسرين(١).

فإذا أراد الإنسان أن يطهر نفسه؛ يطهرها من الكفر والشرك والنفاق والرياء، يطهرها من أمراض القلوب، يطهرها من المعصية كبيرها وصغيرها، يطهرها من الجهل والشبهات والشهوات والبدع، يطهرها من الأخلاق المذمومة.

وإذا أراد الإنسان أن يرقّي نفسه؛ يرقيها بالإيمان واليقين، يرقيها بالسريرة الصادقة، يرقيها بالعلم النافع، يرقيها بالأعمال الصالحة فرائضها ونوافلها، يرقيها بالأخلاق الحميدة والمعاملات المشروعة.

---

(١) انظر مثلًا: تفسير الطبري: ج١، ص٥٥٨، وتفسير ابن كثير: ج١، ١٨٥، قال الطبري في تفسيره ج٣٠، ص٢١١: «قوله: قد أفلح من زكاها؛ يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه، فَكَثَّرَ تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل».

تعريف النفس
التي تزكى وصفاتها ودرجاتها بحسب التزكية

حينما نتكلم عن تزكية النفس نقول: تزكية النفس، فما هي النفس وما هو المقصود بالنفس في هذا التعبير؟

تعريف النَّفْس لغة واصطلاحاً:

تطلق النفس عند أهل اللغة ـ وكذا عند علماء التزكية ـ على أمور كثيرة أهمها مما يتعلق بالإنسان ونَفْسه:

أنها تطلق على الروح، وتطلق على الجسد، وتطلق على العقل والتمييز، وتطلق على خاطر الإنسان وسره ورُوعه، وتطلق على القلب، وعلى ما يميل القلب إليه، وتطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه من جسد وروح وعقل وقلب، وتطلق النفس على همة الإنسان، وتطلق على أَنَفَته وكِبْرِه، وغير ذلك(1).

---

(1) انظر: لسان العرب لابن منظور: ج٦، ص٢٣٣ وما بعدها، والمفردات للأصفهاني ص٥٠١، وهذا خلاصة ما فيهما:

النَّفْس: الرُّوحُ، يقال: خَرَجَتْ نَفْس فلان أي رُوحُه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال أَبو بكر بن الأَنباري: من اللغويين من سَوَّى النَّفْس والرُّوح وقال هما شيء واحد إِلا أَن النَّفْس مؤنثة والرُّوح مذكر، قال: وقال غيره: الرُّوح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل، فإِذا نام النائم قبض اللهُ نَفْسَه ولم يقبض رُوحه، ولا يقبض الروح إِلا عند الموت.

والنَّفْس: الجَسَد، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] يعني آدم، عليه السلام.

ويقال: في نفس فلان أَن يفعل كذا وكذا أَي في رُوعِه وسِرِّه وخاطره، قال تعالى: =

وعند علماء التزكية تطلق النفس بالمعاني اللغوية السابقة كلها، لكن حينما تطلق النفس مضافة إلى التزكية فغالباً ما يقصد بها أحد أمرين:

إما جانب الشر في الإنسان، وإما الإنسان كله بذاته، بكل ما يحتويه من عقل وقلب وجسد وغيره.

فقد تقول: زَكِّ نفسَك؛ وتقصد تطهير جانب الشر فيها، فيكون المراد جانباً من النفس والإنسان، وقد تقصد بهذا القول تطهير جانب الشر مع تنمية جانب الخير زيادته، فيكون المراد جميع نفسك.

= ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ [المائدة: ١١٦] أي تعلم ما أُضْمِرُ.

والنفس: الذات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ومضاف إليه يقتضي المغايرة وإثبات شيئين من حيث العبارة؛ فلا مقصود من حيث المعنى سواه تعالى.

ومن إطلاق النفس على الذات جميعها بما فيها أن تقول: قتَل فلانٌ نَفْسَه، وأَهلك نفسه، أي أَوْقَعَ الإِهلاك بذاته كلِّها وحقيقتِه، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، والجمع من كل ذلك: أَنْفُس و نُفُوس.

ونَفْس الشيء: ذاته، ونَفْس الشيءَ عَيْنه، يؤكد به، يقال: رأَيت فلاناً نَفْسه، وجاءني بِنَفْسِه.

والنَّفْس: ما يكون به التمييز، أي التعقل بحده الأدنى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فالأنفس التي وصفها بالوفاة حين الموت جاءت بمعنى الروح وهي التي تزول بزوال الحياة، والأنفس التي وصفها بأنها تتوفى في منامها هي التي تزول بزوال العقل وذلك بالنوم.

والعرب قد تجعل النَّفْس التي يكون بها التمييز نَفْسَيْن، وذلك أَن النَّفْس قد تأْمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإِقدام على أَمر مكروه، فجعلوا التي تأْمره نَفْساً والتي تنهاه كأَنها نفس أُخرى.

ورجل ذو نَفس أَي خُلُق وجَلَدٍ.

والنَّفْس: العَظَمَةُ والكِبر، والنَّفْس: العِزَّة، والنَّفْس: الهِمَّة، والنَّفْس: عين الشيء وكُنْهُه وجَوْهَره، والنَّفْس الأَنَفَة.

والأَوْلى أن تُحمَل النفسُ على معنى الذات؛ حينما نضيفها إلى التزكية، لما علمنا من شمول معنى التزكية للتطهير والترقية، إلا إذا كان سياق الكلام يدل على تقييد النفس بأحد معانيها الأخرى.

ماذا تحتوي النفس:

ولما كانت النفس تشمل العقل والقلب والجسد، وكل ذلك يحتاج إلى تزكية، وتشمل الروح، فلا بد من بيان حقيقة هذه العوالم الموجودة في كل إنسان، ونحن نُبيِّنُها هنا مختصرة، وسيأتي تفصيل معانيها وما ورد فيها من نصوص في مواضعها المناسبة من الكتاب إن شاء الله.

تعريف مختصر للروح والعقل والقلب والجسد والنفس

١. الروح:

هي اللطيفة التي بها حياة الجسم وقيامه وبقاؤه، ووجودها شرط في إدراك العقل وإرادة القلب وميله، وهي أمر غيبي لم تتعلق به أوامر الشرع إلا باعتبار مخالطته للجسد.

وقد تسمى الروح نفساً باعتبار مخالطتها للجسد وإمدادها له، وتسمى روحاً بالنظر إلى تجردها، وسماها بعض العلماء عقلاً باعتبار أن التعقل لا يكون إلا بوجودها[1].

والعلاقة بين الروح والجسد كالعلاقة بين الحالِّ والمَحَلِّ، أو كالسيارة والسائق، فالسيارة المعطلة لا تسير سيراً طبيعياً ولو كان السائق ماهراً، والجسد المريض يفوِّت على الروح بعض قدراتها، فالجسد آلة الروح، فلا يمكن ـ في العادة ـ التفاهم مع الروح بلا جسد، ولا يمكن للروح ـ في العادة ـ أن تعمل وتتصرف بلا جسد.

٢. العقل:

وهو اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الخير والشر، وبذلك يَعْقِل صاحبه ويحجزه عن المهالك.

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٤٥٨، والجرجاني، التعريفات، ص١٥٠، رقم ٧٤٣، والراغب، مفردات القرآن، ص٥٩٥، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص٣٧٧.

وقد اختلف العلماء في محلها، فقال بعضهم: محلها الدماغ في الرأس، وقال آخرون: محلها القلب في الصدر، ولذلك يسمى العقل قلباً أحياناً[1].

٣. القلب:

يطلق القلب على تلك اللحمة الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر، ويطلق على اللطيفة المعنوية الموجودة في هذه اللحمة، وهو محل الإدراك والتعقل والتفهم[2]، وهو محل الإرادة، وهو محل الرغبات والأهواء فيتقلب بين رغبة وأخرى، بين خير وشر، وهو المخاطَب من الإنسان والمطالَب والمعاتَب[3].

٤. الجسد:

هو الشيء المحسوس من الإنسان، الذي يتوقف عليه صدور الأعمال الحسية، ويسمى الجسم، ويسمى البدن أو الأعضاء، ويسمى الجثة والجثمان[4].

٥. النفس:

تطلق النفس على الروح، وتطلق على الجسد، وتطلق على العقل والتمييز، وتطلق على خاطر الإنسان وسره ورُوعه، وتطلق على القلب، وعلى ما يميل

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ج١١ ص٤٥٨ -٤٦٢، والتعريفات للجرجاني ص١٩٦-١٩٧، رقم ٩٨٥، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لزكريا الأنصاري ص٦٧.

(٢) ويرى بعض العلماء أن العقل هو محل التعقل والتفهم، وأنه غير القلب، وسيأتي الإشارة إلى ذلك فيما بعد.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ج١، ص٦٨٥ - ٦٨٧، ومفردات القرآن، للراغب: ج١، ص١٢٠٤، والتعريفات، للجرجاني: ص٢٢٩ رقم ١١٤٩.

(٤) بعض التعريف مستفاد معناه من: لسان العرب، ج١٢، ص٩٩، ومفردات القرآن ص٢٥٣.

القلب إليه، وتطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه من جسد وروح وعقل وقلب، وتطلق النفس على هِمَّة الإنسان، وغير ذلك[1].

الإنسان ونفسه:

حينما نقول: يجب أن يزكي الإنسان نفسه أو يجاهدها، فكأنما نقول: هما اثنان، يزكي أحدهما الآخر أو يجاهده، وذلك كقول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤]، فكأن الإنسان طرفان؛ شاهدٌ، ومشهودٌ عليه، وما هو إلا واحد يشهد بعضه على بعض[2]، وكقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه سبحانه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[3]، فاللائم والملوم كأنهما طرفان في الإنسان.

وفي الحقيقة ليست نَفْسُ الإنسان إلا هو، وإنما جاز مثل هذا الإطلاق لِما ذكرناه من أن النفس تطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه، كما تطلق على أجزاء منه كالعقل والقلب والروح والجسد، فحينما نقول يزكي الإنسان نفسه، فإن الجانب الذي يُزكِّي في الإنسان يكون غيرَ الجانب الذي يُزكَّى.

فقد يكون الإنسان له ميل في القلب إلى شهوة محرّمة، كحُبِّ شرب الخمر أو الزنا، والعقل يدرك أنها مذمومة، وأنها سبب في غضب الله وعذابه، فواجب الإنسان أن يأخذ حكم العقل ليقوي في القلب جانب الميل إلى ترك

(١) وقد سبق آنفاً تعريف النفس مفصلًا.

(٢) مما قاله الطبري في تفسير هذه الآية ج١٢، ص٣٣٥: «بل للإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه بعمله ويشهدون عليه به... عن ابن عباس قوله: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٥٧٧.

الشهوة، فيكون جانب العقل مزكياً لجانب القلب، فإن أبى القلب أو صعب عليه؛ استعمل المجاهدة والصبر والتمنّع من الجسد، فلا يحقق للقلب مراده وشهوته وميله وهواه ورغبته الباطلة، فتكون التزكية عندئذ من جانب تمنّع الجسد لجانب القلب، فتبين من ذلك أن هناك أكثرُ من جانب في الإنسان، كل واحد منها يُطلق عليه نفس.

وهذا الإطلاق يجوز بأصل الاستعمال اللغوي لكلمة النفس، لأنها تدل على كل تلك المعاني، وقد يكون جوازه من باب إطلاق الجزء على الكل، كما تقول: ضربني فلان، وإنما ضربك بيده لا بكله، أو تقول: ضرب نفسه، وإنما ضرب رجلَه بيده.

ومن المهم أن تكون هذه المسألة مفهومة عند طالب التزكية؛ ليُدْرِك أن عواملَ إصلاحِ ذاتِه كلَّها موجودةٌ فيه، كما أن عواملَ إفسادها كلَّها موجودةٌ فيه، وأنت الذي تُغَلِّب جانباً على جانب لتزكي نفسك أو تدسيها، وهذا ما يستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي فتحنا أمامه سبيل الخير والشر، كما يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ولما كان في نفس الإنسان من الاتجاهات المتعارضة والمتضادة؛ فإن الإنسان ـ وخاصة طالب التزكية ـ يعاني من هذه الصراعات داخل نفسه، فيَغْلِبُ نفسَه حيناً وتَغْلِبُه أحياناً، أي يغلب جانب الخير فيها على جانب الشر، وأحياناً يغلب الشر على الخير، لذلك جاء أمر النبي ﷺ بأن يصارع الإنسان جانب الشر فيه فقال: «المجاهد من جاهد نفسه»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه رقم ١٦٢١ وقال: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان في صحيحه، الإحسان رقم ٤٨٦٢ =

وبقدر ما يستطيع المتزكي أن يغلِّب الخير فإنه يختصر على نفسه طريق التزكية، وبقدر ما يترك لنفسه هواها ورغباتها في الشر والشهوة والمعصية؛ بقدر ما يعذب نفسه، فيتقدم حيناً ويتأخر حيناً، كالمسافر في طريق، بدلاً من أن يسير حتى يصل؛ جعل يتقدم قليلاً، ثم يرجع في طريقه ثم يتقدم ثم يرجع، فمتى عساه يصل مقصده وهدفه؟ ومتى يصل المكان الذي يستقر فيه ويقيم ويرتاح؟ حيث تَصِيرُ نفسُه طاهرة، لا تُحَدِّثُه إلا بخير، ولا تَقْبَلُ عملاً أو قولاً إلا أن يكون خيراً.

= والحاكم في المستدرك رقم ٢٤ من حديث أطول منه وفيه: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، وفي رواية لابن حبان رقم ٤٦٢٤: «جاهد نفسه لله عز وجل» وفي رواية له رقم ٤٧٠٦: «من جاهد نفسه في الله»، ومثلها عند أحمد في المسند رقم ٢٣٩٩٧.

النفس كما وردت في النصوص ومعانيها

نستعرض عدداً من نصوص الكتاب والسنة التي ذكرت النفس، لنفقه منها حقيقة النفس وما تطلق عليه، ولندرك أهم صفات النفس من خلال ذلك(١):

النفس بمعنى الروح:

قال الله تعالى ذاكراً قول الملائكة للظالمين عند الموت: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي أرواحكم.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، أي الأرواح.

ومن دعاء النوم الذي علمناه رسول الله ﷺ أن نقوله قبل النوم: «إن أمسكت **نفسي** فارحمها»(٢)، أي روحي.

ويغلب أن تطلق النفس على الروح إذا كانت الروح متلبسة بالجسد.

النفس بمعنى الذات:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]،

---

(١) جمع والدي رحمه الله في كتاب الأساس في السنة وفقهها قسم العقائد الإسلامية: ج١، ص٢١- ص٧٩؛ جمع النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة التي ورد فيها ذكر الجسد والروح والعقل والقلب والنفس، وقسّم في الصفحات ٦٣ - ٧٩ النصوص الواردة في النفس إلى أربعة أقسام: نصوص في النفس ويراد بها الذات، نصوص في النفس ويراد بها الروح، نصوص في النفس ويراد بها الروح بعد تلبسها بالجسد، نصوص في النفس ويراد بها القلب، فمن أراد التوسع فليرجع إليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٥٩٦١، وفي رواية بلفظ: فاغفر لها، أخرجه البخاري رقم ٦٩٥٨ ومسلم ٢٧١٤.

أي كل ذات، فتشمل الإنسان كله بظاهره وباطنه، بروحه وعقله وقلبه وجسده.

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨]، أي لذاته كلها، فينتفع بكُلِّه.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦] أي يعود أثرُ جهاده وثمرتُه على ذاته.

النفس بمعنى الجسد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، يعني جسد آدم عليه الصلاة والسلام، والمراد تناسل الأجساد من جسده، أما الأرواح فلكل جسد روحه الخاصة التي تنفخ فيه.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، أي أجسادكم، لأن الخروج من الديار لا يتحقق إلا بالجسد، فالحكم متعلق به، وغيره تبع له هنا.

وبعض النصوص تحتمل أن يكون المراد بالنفس فيها الجسد، وتحتمل أن يكون المراد الجسد مع ما معه من عقل وقلب وروح، فمن ذلك:

قال الله جل وعز: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي لا يكلف جسداً إلا قدرته، ويجوز أن يكون المقصود الذات، فلكل إنسان قدرة محدودة وطاقة، سواء في إدراكه العقلي، أو ميله القلبي نحو الخير أو الشر، أو في قدرته الجسدية من كلام وفعل وغيره، فمَنْ ذَهَبَ وُسْعُه العقلي فلا يُكلَّف، ومن نَقَصَ وُسعه الجسدي فلا يطالب إلا بالعمل قدر طاقته.

النفس بمعنى القلب:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥]، فالأولى في الآية تتحدث عمّا خبأتم في قلوبكم، والثانية تتحدث عمّا نويتم، والنية في القلب، والله يعلم ما في قلوبكم وبواطنكم وخواطركم وأسراركم.

وقال الله سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أي ما تخفون في قلوبكم من نوايا وقرارات، وإنما يبديها الإنسان ويظهرها بكلامه أو أفعاله.

وقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، أي في قلوبهم.

النفس بمعنى العقل:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]،فالأنفس التي وصفها بأنها تتوفى في منامها هي العقول.

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وإدراك الحق والتيقن منه يكون بالعقل، فالأنفس هنا هي العقول.

من صفات النفس التي تحتاج إلى تطهير وتزكية

ذكرنا أن النفس حينما تضاف إلى التزكية فكثيراً ما يراد بها جوانب النفس السيئة، وقد وردت كثير من النصوص في الكتاب والسنة تستخدم لفظ النفس لهذا الجانب، فتصف النفس بصفات مذمومة، كما وردت نصوص تصف النفس بأنها هي التي تدفع إلى الأفعال المذمومة وتكون سبباً في السوء والشر والباطل والمعصية والشهوة.

وهذه نماذج مما بينه الله تعالى ونبيه ﷺ من صفات النفس التي يجب تطهيرها ومجاهدتها وتزكيتها، وليس من مقصودنا هنا أن نستقرئ ونجمع جميع النصوص، وإنما هي أمثلة تزيد معرفتنا بالنفس وصفاتها، نَذْكُرُها لِيتعمقَ لدى المسلم ضرورة تزكيةِ نفسه وضرورة تخليصِها من أمراضها وشرورها:

ـ قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] فبين أن من طبائع النفس إذا تركت من غير تزكية وتطهير أنها تميل إلى السوء وتأمر به.

ـ قال الله جل وعز: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، فالنفس تُطَوِّع وتهوِّن فعل السوء والمعصية الكبيرة والجريمة، وهذا التطويع عائد إلى اختلال في موازين العقل عنده، أو عائد إلى هوى في القلب أثّر على أحكام العقل فأصدرت أحكاماً باطلة، وهذا أمر في الإنسان يحتاج إلى تزكية وتطهير، حتى يصل إلى حد تستعظم نفسه معه الجريمة والمعصية والسوء، صغيره وكبيره، فلا يقتنع بها، ولا يعملها، ويحتاج إلى تزكية حتى يصل إلى حد لا تؤثر فيه أهواء القلب على العقل وأحكامه السليمة.

ـ قال الله تعالى: ﴿ قَالَ(١): بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨و٨٣]، فالنفس تحدث بالسوء وتزينه وتحببه وتحسنه وتدفع إليه، ومثله قوله تعالى ذاكراً قول السامري: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: ٩٦]، وهذا أمر يحتاج إلى تزكية وتطهير، حتى لا يرضى الإنسان أن يفكر في عقله، أو يعزِم في قلبه على شر وباطل.

ـ قال الله عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، فالنفس تهوى أشياء وتميل إليها وتحبها، وتعرض عن أشياء فتكرهها ولا تميل إليها، وما في النفس من ميل أو إعراض يكون سبباً في تصرفات باطلة كالكِبر وتكذيب الحق وقتل أهله، وينبغي أن نطهر النفس لتهوى وتحب الخير والحق، وتكره الشر والباطل والسوء وتعرض عنه، ثم يكون عملها وقولها موافقاً لما تحبه وتهواه بحق، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ـ قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩ والتغابن: ١٦]، فمن صفات النفس عادة الشحُّ، أي البخل، ومن واجب الإنسان أن يتخلص من هذه الصفة ويتوقاها ويتطهر ويتزكى منها.

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاثَ عُقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد(٢)، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب **النفس**، وإلا أصبح خبيث **النفس** كسلان»(٣)،

---

(١) أي يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(٢) أي ما زال الليل طويلًا فنم.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٩١ ومسلم ٧٧٦.

فالنفس توصف بالنشاط والطيب، كما يمكن أن تكون خبيثة كسلانة، وأعمال الطاعات تكون سبباً في طيبها ونشاطها، وتركُ الطاعة والشيطانُ يكونان سبباً في الخبث والضعف.

ـ عن ابن عباس رضي الله عنه: قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، **والنفس تتمنى وتشتهي**، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه»[1]، فمن صفات النفس أنها تشتهي شهواتٍ وتتمنى أماني، وما ذكره الحديث هو أماني النفس الباطلة وشهواتها المحرمة، لأنه عدها من الزنا.

(١) أخرجه البخاري ٥٨٨٩ ومسلم ٢٦٥٧، وفي رواية أخرى عند مسلم: «والقلب يهوى ويتمنى».

درجات النفس بين التدسية والتزكية

يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا[1]﴾ [الشمس: ٧-١٠].

تبين الآيات أن النفس قابلة لصفات متقابلة، وليست صفات السوء والخبث والغواية ملازمةً لها، بل يمكن أن تتزكى وتَطْهُر؛ لتصير طيبة طاهرة محبة للخير والحق، لتصير ذات صفات حسنة كريمة زاكية، يتطلع إليها كل مسلم.

والنفس في سبيل إصلاحها تترقى درجات، فتتحول من صفة مذمومة إلى صفة محمودة، وتكون على حال وتصير إلى حال أعلى وأجمل وأزكى، وقد نبهت الآيات إلى هذه الدرجات التي تمر بها النفس في تطهيرها وترقيتها، وهذه هي مع بيانها:

١ . النفس الأمارة بالسوء:

أسوأ حالات النفس وأخبثُها أن تكون مُحِبَّةً للسوء والشر والباطل، تأمر به، وترغب فيه، ولا ترى فيه عيباً، قال الله تعالى فيما قصه عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

---

(١) دساها تدسية: أي جعلها خسيسة خبيثة. انظر: لسان العرب لابن منظور: ج٦، ص٨٢، ذكر البخاري عن مجاهد قال: «دساها: أغواها»، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والشمس وضحاها... قبل حديث رقم ٤٦٥٨.

والآية تدل على أن الإنسان ما لم يدخل في رحمة الله وهدايته، فإن الأصل في نفسه أنها تميل إلى السوء وتأمره به.

وأعظم السوء سوء الأدب في حق الله تعالى؛ بالكفر والإنكار لوجوده أو صفاته، ومن أعظم السوء مخالفة الحق مما يجب الإيمان به، وأن يقول كذباً وباطلاً في حق الله وكتبه ورسله وملائكته وغيبه وآخرته وقدره.

ثم من السوء: معصية الله بفعل المنكَرات والمذمومات والمكروهات والمستحقَرات.

وصاحب هذه النفس الأمارة بالسوء؛ تحب نفسه السوء وتأمره به، فيندفع إلى السوء والباطل والمعصية، ولا يبالي، كما وصف عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه الفاجرَ حين قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا»(١).

وحينما تكون نفس الإنسان مائلة إلى السوء نجد من صفاتها: المسارعة إلى الباطل، ومتابعة الهوى، كالذي يشاهد التلفاز وقد أذن المؤذن للصلاة ولم يلبِّ النداء، مَنِ الإلهُ عند هذا؟ مَنِ الحاكمُ عنده؟ يحكم الله عليه بالصلاة فلا يستجيب، وتحكم عليه نفسه بمتابعة المسلسل أو الفيلم فيستجيب، جعل من نفسه إلهاً حاكماً يتابعها فيما تهواه وتميل إليه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وسبيل إصلاح هذا كله التزكية.

ومن صفات هذه النفس: اتباع الشهوات فيما تحبه النفس، والكسل، وحب الراحة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٩.

ومن طبيعة النفس المريضة: الرياء، الحرص والشره والبخل والعجلة والقلق والخوف من الفقر وهمُّ الرزق مع أن الله تعالى يطمئننا فيقول في كتابه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ومن طبيعة النفس الفاسدة: حب الاعتماد على الغير، والتكبر، والغرور، والحقد، والغضب، والحسد، وحب الظلم، وحب الرئاسة والإمارة ولو من غير أهلية، كل تلك الصفات هي صفات للنفس التي ينبغي أن نزكيها ونطهرها لتنقلب إلى صفات محمودة طيبة.

صاحب النفس الأمارة بالسوء تأمره نفسه بالسوء والمعصية والشر، ولا يكره ذلك من نفسه، ولا يرجع إلى عقله، ولا يرجع إلى أحكام الله ليزن بها رغباتِه وأعمالَه، **فإذا أراد أن يزكيها وَجَّه قلبه إلى معرفة الخير والحق، وبحث عنهما، ورغب فيهما.**

ودينا كله حق وخير، فالله تعالى قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أي إلى الإسلام وما فيه من أحكام، وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسراء: ٨١] أي الإسلام.

٢. النفس اللوامة:

فإذا زكّى الإنسان نفسه شيئاً ما، فزكى سرّه وقلبه وخاطره وتَوَجُّهَه، فتوجه نحو الخير وأحبه ورغب فيه، وكره الشر وأعرض عنه ولو بفكره وعقله وخاطره وقلبه، فإنه يترقى إلى مرتبة أخرى، فعندئذ لو وقع في المعصية أحياناً فإنه لا يرضى بها، ويحزن على نفسه من وقوعه فيها، ويرفضها بعقله وفكره، قال الله تعالى فيمن هذا شأنه:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

فهذا إنسان تطهَّرت نفسه من حب الشر، لكنه قد يميل بقلبه إلى الشهوة والمعصية أحياناً، فتغلبه نفسه فيقع فيها، لضعفٍ ما زال فيه، أو لغفلة تنوبه، أو لأن حلاوة المعصية ما زالت قوية في نفسه[1]، لكنه ـ لعدم حبه السوء ولعدم رغبته في الشر ـ يراجع نفسه ويحزن على نفسه ويلومها إذا أخطأ، ويلومها إذا تكاسل عن طاعة وخير.

فكأنما هو في صراع بين عقله ونفسه، خاطر من عقله يدله على الخير ويزينه له، وخاطر من نفسه التي ما زالت مريضة يزين له الشهوة والمعصية ويدفعه إليها، فإذا قويت أسباب الخير كان مع الخير، وإذا قويت أسباب الشر ربما وقع فيه.

وشتان ما بين النفس اللوامة والأمارة، فاللوام باطنه متوجه نحو النور والخير، والآخَرُ باطنُه خَرِبٌ خبيثٌ مائل إلى الظلمة والشر.

وإذا لامَ الإنسان نفسه على المعصية وصدق في كرهه لها؛ استغفر منها، وبحث عن سبيل التخلص منها، وابتعد عن أسبابها، كما يحرص على البعد عن النار، وشغل نفسه بالحق عنها، ورافق الصالحين ليتشبه بصلاحهم، فيوشك أن يترقى إلى حال أحسن وأزكى.

٣. النفس الملهمة:

إذا تعمَّقَ حبُّ الخير وبُغضُ الشر في النفس؛ صار حديث العقل والقلب والنفس في السر والباطن كلُّه متوجهاً نحو الخير والصلاح، فتصير النفس تلهم صاحبها بهما، قال تعالى في شأن هذه النفس:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨].

---

(١) كمن قيل فيهم: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٩٣].

فالتي ألهمت الفجور هي النفس الأمارة بالسوء، وللنفس اللوامة نصيب من ذلك، والنفس التي ألهمت التقوى هي هذه النفس الطيبة التي نتكلم عنها.

وصاحب النفس الملهمة قد تحقق بصفة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

والنفس تلهِمُ وتُوسوس، كما للملك إلهام وللشيطان وسوسة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، توسوس لصاحبها بما تميل إليه وتحبه وترغب به، فإن كانت ترغب في الخير وسوست به وألهمت صاحبها به وتحدثت إليه فيه، وإن كانت ترغب في الشر وسوست به وألهمت صاحبها به.

وإذا مالت النفس إلى الخير وجد الشيطان صعوبة في أن يخترق قلب هذا الإنسان، لأنه متنبه من الشر، حَذِرٌ منه، لا يرغب به، وصاحب هذه الدرجة تقل معاصيه وتندر، مستقيم في الجملة يقوم بفرائضه وبكثير من النوافل معها، يخطر في بالِه وقلبِه إلهامٌ بالخير وبما يزيده قرباً إلى ربه؛ لكنه قد لا يتجاوب معه، وقد يتكاسل فيه ويقصِّر.

وإذا قوّى صاحب هذه النفس حب الخير والتقرُّب؛ تزكّى وترقّى إلى حالة أسمى، لا يرضى معها أن يترك خيراً أو يتأخر عنه؛ فرضاً أو نافلة، خلقاً أو أدباً، عملاً أو قولاً، حالاً أو مقاماً، ظاهراً أو باطناً.

٤ . النفس المطمئنة:

إذا أحب العبد الخير والحق وجرى خاطره دائماً فيهما، ووصل إلى حد الاطمئنان بهذا الخير والحق، فهو مطمئن إلى الله سبحانه، مطمئن إلى وعد الله،

مُسَلِّم له في مقاديره، مسلِّم له في شريعته وأحكامه، فلا يجد شيئاً مما يرضي الله عز وجل من الحق الذي دلنا عليه إلا وكان مائلاً إليه مقبلاً عليه قائماً به ومتعلقاً به، متعلقاً بكل ما يعينه على الطاعة، كما قال النبي ﷺ في أحد الأصناف السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «وشاب قلبه **معلق** بالمساجد»(١).

قال الله تعالى في حق صاحب هذه النفس:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

وتَعَلُّقُ العبد بربه ـ بكثرة ذكره وتعظيمه ـ هو أعظم ما يورث هذا الاطمئنان، وهذا الاعتماد على الله وهذا الاستقرار على شرع الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلو حدثته نفسه أو شيطانه بشهوة أو معصية؛ فلا اطمئنان عنده إليها، ولا ارتياح عنده منها.

وإذا حدثته نفسه أو المَلَكُ بالخير ارتاح إليه وتحرك نحوه ولم يتردد.

ومما يفترق به صاحب النفس المطمئنة عن صاحب النفس الملهمة الذي لم يطمئن بعد: أن الملهم قد يتجاوب مع ما أُلهم به وقد لا يتجاوب، فيحتاج فيما لم يتجاوب معه إلى مجاهدة نفسه حتى يأتي بالطاعة والخير، أما هذا فلا يجد في نفسه تعباً ولا مكابدة ولا معارضة فقلبه مستسلم لحكم الله عز وجل، لا يرضى معه حَكَماً غيره، لا حُكْمَ نفسِه ولا غيرِه، فهذا الذي تحقق بالإيمان حقاً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ ومسلم رقم ١٠٣١.

فلا يصوم وهو يود لو أن الله لم يكتب عليه صياماً، بل يتلذذ بصيامه ويتقرب به لمحبوبه سبحانه.

ولا يقوم الليل وهو يتمنى أن لو لم يندب إليه، بل يقوم وهو مرتاح به منشرح إليه سعيد به.

ولا تضع المرأة الحجاب وهي متثاقلة له تتمنى أن لو لم يشرع ويفرض عليها، بل تضعه وهي تشعر أنه الأحسن والحق، وتحس بسعادة أنها أطاعت ربها وتقربت إليه بما فرض عليها.

ولا يستثقل الجهاد وما فيه من تعب وتعرُّض للألم والموت، بل يستشعر أنه جندي لله عز وجل، مملوك له، وأنه بجهاده مقبل على الله تعالى، فيحب لقاء الله حبيبِه، ويحب نصرة شرع الله الحكيم، ويحب أن يُدخل الناس في دين الله ربهم وخالقهم وإلَهِهم.

المقدمة الثانية

في أهمية التزكية ومكانتها
في دين الله وفي حياة الإنسان

المقدمة الثانية

في أهمية التزكية ومكانتها في دين الله و في حياة الإنسان

١. جاءت الشريعة الإسلامية لتعطي الإنسان الخير كله في الدنيا والآخرة، فبين الله للعبد العلمَ الصحيح، وبين العمل المطلوب، وهيأ وسائل ذلك، وبعث الرسل وهيأ لهم خلفاء يرشدون إلى فعل الخير وترك الشر.

فأعطى ديننا كل الاهتمام لِتطهير الإنسان من سيئاته ولإصلاحه وترقيته، وقد سمّى الله تعالى حال الإنسان بهذا الاعتبار تزكيةً، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤].

فكما جاء النبي ﷺ ليتلوَ علينا ما أوحى الله إليه، ويعلمَنا ما في القرآن والسنة من علم وحكمة وأحكام؛ فقد جعل الله من وظيفته تزكية النفوس، كما بينت الآية.

وبين الله تعالى أن على العبد أن يزكي نفسه وأن تزكيته لنفسه هي فلاحه وتحقيق مصلحته، فقال:

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وبين الله تعالى أن الأعمالَ الصالحة تزكي النفس:

قال سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨]،

فمن العمل الصالح الذي يتزكى به الإنسان ويتطهر إيتاء المال، وكذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وبيّن النبي ﷺ أن التزكية راجعةٌ إلى الله تعالى، فهي فعله وتقديره ومشيئته، كسائر الأعمال، فكان يدعو:

«اللهم آت نفسي تقواها، **وزكها** أنت خير من **زكاها**، أنت وليها ومولاها»(١).

مما سبق يتبين لك أن التزكية واجب عليك **أنت** مأمور به أيها المكلف، وهي من وظائف **النبي** ﷺ أن يرشدك إلى ما فيه تزكيتك، وهي وظيفة وُرَّاثِه العلماءِ من بعده، **والشريعة** قد بينت كلَّ عمل تحصُل به التزكية، وكلَّ صفة من صفات التزكية والطهارة والرُّقِيّ(٢).

وكل ذلك يكون بتوفيق **الله** وتقديره ومشيئته، فلذلك جاءت بعض النصوص السالفة تنسب التزكية إلى العبد وتأمره بها، وبعضها تنسبها إلى النبي ﷺ وتبين أنها من وظائفه، وبعضها تنسبها إلى الأعمال والعبادات، وبعضها تنسبها إلى الله، كل ذلك تنبيه إلى أن التزكية إنما تتكامل من خلال ذلك كله.

٢. والتزكية هي التي يستحق بها الإنسان الفلاح والجنة، فلا يكفي علم ولا عمل، ما لم يكن معه تزكية للنفس.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه رقم ٢٧٢٢ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) وكل الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه ـ بما فيها من عقائد وأحكام وأعمال وأخلاق ـ هي طريق التزكية لمن نزلت عليهم، قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]، فموسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون ـ كما في الآيتين ـ إلى أن يستجيب إلى شريعته، فيعبر عن ذلك بأنه الأمر الذي يتزكى به ويهتدي.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

٣. إن النفس هي المحل الذي **يعلم** الحق، وهي المحل الذي يمكن أن **يعمل** بالخير، فإذا كانت النفس سيئة أو مريضة لم تنتفع مما تعلم من الحق، بل إذا كانت متكبرة معرضة عن الحق صورت الحق باطلاً، ولم تنتفع من الحق، بل تحاربه، وإذا كانت النفس كسولة مائلة إلى الشهوات تركت الخير ولم تعمل به، لذلك كان لا بد من العناية بإصلاح النفس، حتى تكون مستقيمة طاهرة، لتحمل الحق وتعمل به وتتحلى به.

فالنفس الصالحة الزاكية لا تكتفي بمعرفة الحقائق والعقائد من غير أن تتفاعل معها، بل تكون الحقائق محل اهتمامه، فيخضع لها ويوقن بها، ويجعلها المولِّد والمحرِّك لحياته وأعماله وواقعه، فعنها يَصْدُرُ، ومنها يَنْطَلِق، فيتحوَّل الاعتقاد إلى واقع يعيش على أساسه، ويسير في الحياة بناءً عليه.

وطهارة النفس وسلامتها تدفع صاحبها إلى التفاعل مع علم الفقه والأحكام، فيعمل بها في واقعه، ويطبقها ويقيمها، ولا يخالفها.

فلا بد من تطهير للنفس لتصل إلى الانتفاع من علم العقيدة والفقه.

علماً أن عمله بالأحكام يعود على نفسه بمزيد من الصلاح والتزكية، فتدفعه إلى مزيد من العمل بعلمه النافع.

ـ كم من إنسان عالم بالعقيدة عالم بأن الله يسمع ويبصر؛ وهو يعصيه ويسيء الأدب بين يديه؟

وكم من إنسان يعلم أن الصلاة فريضة وهو لا يصليها؟ ماذا أفاده فقهه وعلمه؟

كم منا من يعلم أن قيام الليل فيه من الفضيلة ما فيه؟ كم فينا من يقومه؟ إذا طهرت النفس حرصت على هذا الحكم وعلى هذا الأمر.

كم فينا من يعلم أن صيام يوم في سبيل الله يباعدنا عن النار سبعين خريفا، أي سبعين سنة؟ وكم منا يحرص على هذا الفضل؟

إذا قارنا أنفسنا بأهل الدنيا، لو أن إنساناً يعمل في شركة، وقيل له: في كل يوم تأتي فيه صائماً؛ فإنه سيضاف إلى راتبك مبلغ من المال، من منا سيترك الصوم؟!

فلماذا نترك الصوم ونبينا ﷺ يدعونا إليه ويحثنا عليه بما يبين لنا من عظيم أجره، إذاً إيماننا بما قال النبي ﷺ ضعيف، وهذا يحتاج منا إلى تزكية وتطهير للقلب حتى تزول عنه هذه الغشاوة التي تمنعنا من التجاوب مع الحق الذي جاء به نبينا ﷺ.

٤. التزكية مطلوبة من كل فرد في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن ترى الأثر العظيم لتزكية النفس حتى تظهر في المجتمع كله، فتظهر حقيقة العبودية فيه لله، وحقيقة الاستقامة، وجمال الخلق الراقي والأدب الرفيع، وحسن المعاملة، وغير ذلك.

ولا يمكن أن تقوم حضارة راقية تسعد البشرية إلا على معاملة طيبة وأخلاق راقية، وكل حضارة تنقصها الأخلاق والمعاملات الصالحة فهي مهددة بالزوال والدمار، وأذاها لشعوب الأرض وإفسادُها أكبرُ من الخير الذي تقدمه أو تسعد به البشرية.

والتزكية إذا وجدت في المجتمع المسلم؛ فإنها وحدها من أعظم وسائل الدعوة إلى دين الله، فإن الناس إذا رأوا جمال خلق المسلم وحسن معاملته وأدبه وطيب كلامه؛ ينجذبون إليه ويميلون إلى دينه الذي تربى عليه وأوصله إلى هذا الجمال والرُّقيّ، ألا ترى إلى الإسلام كيف دخل كثيراً من البلاد ـ كشرق آسيا وبعض إفريقيا ـ بأخلاق تجار المسلمين وحسن معاملتهم وصدقهم.

واليوم والناس يرون سوء أخلاق كثير من المسلمين، فينفرون عن ديننا ظناً منهم بأن هذه الأخلاق هي أخلاق ديننا، فصار هؤلاء المسلمون بترك أخلاق دينهم سبباً في صرف الناس عن دين الله، أصلحنا الله وغفر لنا.

٥. وإذا زكى الإنسان نفسه صار إنساناً طيباً صالحاً جميل الأخلاق جميل الحال، صالحاً بين يدي الله، محبوباً عند الناس، مرتاح الضمير، سليم التفكير، سعيداً في دنياه وأخراه[1]، فالتزكية تخرِّج رجلًا ربانياً طاهراً زكياً مقبولًا محبوباً خلوقاً عابداً عاملاً داعية مهذباً في قلبه وقالبه، لا تخرِّج مستكبراً مبغوضاً مغروراً وقحاً دعيّاً.

وحتى يزداد فهمنا للتزكية، وندرك كم هي حاجتنا إليها في حياتنا، فلنبين:

---

(١) إن من طهرت نفسه لا يَقبل على نفسه النقائص والعيوب والمعاصي والانحراف والشهوات، بل ولا يقبل على نفسه نقص المروءات، ومما يدل على الحالة النفسية الطيبة التي يتمتع بها من زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، كما يدل على سعادته في حياته قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ومما يدل على حب الناس له ما أخرجه البخاري من أن الله إذا أحب عبداً وضع له القبول في الأرض.

حال الإنسان حينما يطلب تزكية نفسه و نماذج مما نزكي أنفسنا به

مهما كان حال المسلم حسناً ومستقيماً؛ فإنه لا يخلو من أن يكون محتاجاً إلى مزيد من التزكية ليزداد استقامة وحسناً، وطهارة وسمواً، فكلنا نحتاج أن نكون من الطالبين للتزكية، كل بحسب حاله ومنْزلته.

فليست التزكية خاصة بالأولياء والصديقين، بل كل مسلم يكون له حظه ونصيبه منها.

وفي أي موقع إيماني كنت فيه أو وصلت إليه يمكنك أن تبدأ تزكية نفسك أو أن تواصل تزكيتها وتطهيرها وتنميتها.

ومهما كنت سيئاً أو مذنباً أو منحرفاً في اعتقادك أو عملك أو قولك أو خلقك؛ فأنت تحتاج إلى تزكية بتطهير نفسك مما أصابك من سوء أو انحراف أو ذنب، ثم تحتاج إلى ترقية نفسك وتقريبها من الله مولاها سبحانه.

ومهما كنت صالحاً مستقيماً طاهراً؛ فأمامك مسافات لا نهاية لها تقطعها في تقربك إلى الله، كما تستطيع أن تجد جوانب تستطيع أن تصلحها في نفسك وتطهر نفسك منها أكثر، وجوانب تحذَر منها، فلا أحد معصوم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلا من عصم الله(١)، ولا أحد منا يضمن لنفسه الحفظ من المعصية والذنب، فيحتاج كل منا أن يبقى في حالة تزكية وتطهير مستمرة، خشية أن يعود إلى الذنب أو الضعف أو الانحراف.

---

(١) أخرج البخاري رقم ٦٢٣٧ عن النبي ﷺ قال: «والمعصوم من عصم الله».

ومهما بلغ أحدنا من مقام وعلم؛ لا يبلغ مقام رسول الله ﷺ، ومشابهةُ رسول الله ﷺ ومتابعتُه التامَّة هي الصورة المثلى للتزكية التي نطلبها، فلا بد أن نبقى دائماً على طلب مستمر لمزيد من العلم والفهم والتقرب إلى الله.

إنه لا يمكن أن يحرص الإنسان على شيء ما لم يكن يتصور ذلك الشيء، فإذا تصوره وفهمه فعرف أنه حسن؛ فذلك يدفعه إلى الحرص عليه والاستفادة منه، لذلك علينا أن نعرف التزكية وقيمتها وجمال من يتحلى بها.

وفيما يأتي **نماذج من أحوال الناس وصفاتهم وأعمالهم** حينما يطلبون التزكية، مما يستدعيهم إلى طلب المزيد من التزكية، تطهيراً وترقية:

١. إنسان ـ رجلاً أو امرأة ـ عنده اعتقاد باطل، أو انحراف عن العقيدة الحقة، كمن يشبه الله بخلقه، أو ينفي عن الله صفة أثبتها لنفسه.

٢. رجل يجهل بعض صفات الله، أو يشك في قدرته وصفاته، كمن يشك في أنه المعطي والمانع والرزاق.

٣. رجل يعلم الحق لكنه يُظهر خلافه لهوى في نفسه أو لتكبر.

٤. رجل عنده ضعف ثقة بالله، وضعف في التوكل عليه، فيثق بالناس والمال والأسباب ويظنها هي المؤثرة الفاعلة في الكون، ولا يعتمد على الله ولا يثق بقدرته وفعله.

٥. صاحب كبيرة استهان فيها، أو يريد التخلص منها لكنه يضعف عن ذلك، كمن يعق والديه، أو كمن يرابي أو يضع ماله في البنوك الربوية، أو كمن لا يتورع عن رشوة، أو كمن ابتلي بكبيرة الزنا أو اللواط، أو عدم غض البصر عن المحرمات.

٦. رجل عنده تعلق ببدعة، كمن يشتغل بمكروه أو مباح ويدعي أنه سنة أو واجب.

٧. رجل يخوض في فتنة يثيرها على الناس، كمن يثير الشبهات في دين الله، أو يريد حمل الناس على رأي واحد في الخلافيات.

٨. صاحب استقامة في الجملة لكن عنده ذنب أو شهوة لم يستطع التخلص منها، كالنظرة المحرمة، أو تعلقه بالدخان، أو الغناء الماجن، أو القات، أو كحجاب المرأة مع إصرارها على لباس فيه فتنة ولفت نظر أو هو ضيق، أو حرصه على قراءة القصص التي لا نفع فيها.

تجد امرأة تصلي وهي تاركةٌ للحجاب مع علمها بأنه فرض، وهي عاصية لله، مُفسِدة بتركها للحجاب، تعرِّض الشباب للشهوة والفتنة، وتجاهر بمعصيتها إذ يراها الناس من غير حجاب، هذه امرأة اختلت عندها التزكية، زكت نفسها في جانب الصلاة، ثم فعلت التدسية والانحراف والفساد والباطل بتركها لحجابها، فالتزكية عندها ضعيفة تحتاج إلى استكمال لتكون طائعة لله في كل أمر.

٩. رجل يقيم فرائضه، لكنه متعلق بالدنيا منشغل بها عن كثير من النوافل والخيرات، منشغل بِهَمِّ الدنيا عن حضوره مع طاعته، يطلب من الدنيا مزيداً عن حاجته، ولا ينفقها في خدمة دينه ولا في ما يقربه إلى الله.

١٠. صاحب استقامة على الطاعات، لكن عنده رعونة أو سوء في أخلاقه، كمن يقع في الغِيبة أو النميمة، أو يتكلم بألفاظ نابية، أو يشتم عندما يغضب، أو يغضب بسرعة، أو يحتقر الآخرين، أو يقع في الكذب، أو يكون بخيلاً، أو يحمل الحقد في قلبه، أو يحسد الناس على ما آتاهم الله، أو يسيء الأدب والخلق مع زوجته وأهله، أو كالمرأة التي تقصِّر في التجمُّل لزوجها، فلا تُعِفُّه ولا تغنيه عن الحرام ولا تحصنه من الفتنة.

يحرص أحدنا على الكلمة الطيبة مع الناس، ولا يحرص عليها مع والديه وزوجته، فالتزكية تنبهه إلى الأَوْلَى في ذلك، وهو أن يعطي اهتماماً أكبر للكلمة الطيبة مع والديه وزوجته وأبنائه.

أحدنا يحب أن يعامله الناسُ بالإكرام والإحسان، وهو لا يعامل الناس بمثل ذلك، لا بد له من التزكية لتصير أخلاقه ومعاملاته مع الناس على أحسن حال، فيتحمل من الناس إساءاتهم، ويحاول إصلاحهم ودعوتهم إلى الحق، ويَرغَبُ بالخير للناس كما يرغب بالخير لنفسه.

١١. صاحب استقامة لكن عنده ضعف عن بعض النوافل من الطاعات، كضعفه عن قيام الليل، أو تقصيره في قراءة القرآن أو عجزه عن الإكثار من الصيام، أو البخل عن الصدقة مع القدرة عليها، أو غفلته عن ذكر الله، أو تقصيره في الدوام على الذكر، أو تكاسله عن طلب العلم النافع وتعلم أحكام الله.

١٢. تجد رجلاً ملتزماً بدينه، لكن حذره من الشيطان قليل، فيوسوس له الشيطان فيوقعه في بعض المعاصي، يحتاج أن يزكي نفسه ليصل إلى حالة لا يكون للشيطان عليه تأثير، ليكون ممن قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]، بل ينبغي أن يصل من خلال التزكية إلى أن يكون بحيث لو وسوس له الشيطان لزاده تذكراً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فيترك الشيطانُ الوسوسةَ إليه حتى لا يزيده تَذكرةً وتبصرة.

١٣. صاحب استقامة وقرب من الله، لكنه لم ينبته إلى التوجه إلى مزيد من القرب والتطلع إلى مقامات أعلى، أو يحس بوقوف سيره وتقربه، أو فقد

حلاوة طاعته، أو أعجبته طاعته، أو دخل عليه الكِبْر والعُجْب ورؤية النفس بسبب كثرة طاعاته وصلاح حاله، فعلى هؤلاء أن يلتفتوا إلى المزيد وإلى إصلاح النقص الذي يدخل عليهم.

أحدنا يتذكر ربه أحياناً، لكنه يغفل عن ربه كثيراً وينسى رقابة الله، يحتاج إلى تزكية ليصل إلى حالة تدوم معها معاني المراقبة والحضور مع الله، ثم الخشوع والخضوع لله، ثم الحب والأنس بالله.

يعتقد المسلم أن الله موجود وسميع وبصير، فيجتهد في تطهير فكره وفي تذكر هذه الحقيقة من خلال الإكثار من الذكر والتفكر، حتى يجعل من هذا الاعتقاد يقيناً يعايشه، فالذي يتصور التصور الصحيح لوجود الله وبصره؛ كيف يعصي الله؟ أحدنا يكون معه رجل أو شاب فيخجل أن يعصي أمامه، فكيف لو تيقن الإنسان من معرفة سمع الله وبصره، كيف سيعصي الله عندئذ، هذا نموذج مما نطمح أن نعالجه من خلال التزكية.

١٤. رجل أقام أحكام الشريعة في ظاهره، لكنه ينقصه كمالها في قلبه وباطنه، كمن يصلي صلاة صحيحة الظاهر، لكنه فاقد للخشوع، وكمن يتصدق، لكنه يحب أن يراه الناس وأن يمدحوه عليها، وكمن كلامه طيب مليء بالحكمة والحق، ولكنه يأمر بالبر ولا يأتيه، ويتكلم في مقامات الأولياء والصديقين العالية، وليس يبذل جهده إليها، فيتوهم الناس بلوغه إياها، وكمن هو متواضع أمام الناس في ظاهره وكلامِه، لكنه في سره وقلبه يرى نفسه فوق الناس، وكمن له أعمال صالحة أمام الناس، لكنه لا يراقب الله تعالى في خلوته، فتجد صلاته أسرع عند انفراده، وقراءته للقرآن أقل تجويداً عند عدم سماع أحد من الخلق له.

أحدنا يصلي صلاته ويقيم أركانها وسننها، فينوي ويكبر ويقف ويقرأ

ويركع ويسجد، لكن صلاته لا خشوع فيها ولا حضور فيها مع الله، نجدها فاقدة لروحها ومعانيها ولذتها، من خلال التزكية نطمح أن نصل إلى الحضور والخشوع.

١٥. رجل صالح عالم مربٍّ، لكنه يدعو الناس ويعلمهم ما هو أقل نفعاً وتأثيراً، يحتاج إلى تزكية حتى يحرص على أن يكون أنفع للخلق وأكثر همّاً في حمل الدعوة.

أحدنا قد يكون رحيماً بنفسه يحب لنفسه الخير والرفق، لكنه يحتاج إلى أن يتحقق بالرحمة الكاملة ليسع الناس جميعاً برحمته، فيكون رحيماً بالمسلمين والمؤمنين، ويكون من رحمته وشفقته أنه حريص على إنقاذ الكافر من الكفر والنار، فهو مستعد لأن يضحي بماله وروحه ليوصل الهداية والحق إلى الناس فينقذهم.

وغير ذلك مما لا يعدُّ من الصور.

وكل واحد من أصحاب هذه الصور وغيرها من الصور المحتملة؛ تختلف بدايته عن الآخر:

فمن كان كافراً كانت تزكيته بتنبيه عقله إلى الإيمان بالله، وإقناعه بصدق المعجزة الدالة على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ، أو تكون تزكيته بتحذيره من الكبر على الله، ومن غلبة الهوى على الحق عنده.

ومن كان عنده انحراف في عقيدته يكون الاهتمام بتزكيته من الشرك والكفر والنفاق وسوء الاعتقاد بإزالة الشبهات بالحجج الشرعية والعقلية.

والعامة من المسلمين تبدأ تزكيتهم بالاستغفار وترك الذنوب من الكبائر والصغائر.

وبعض الناس ممن استقام والتزم بدينه يبدأ التزكية بترك الشبهات والورع وكثرة الذكر، وهكذا.

ولا يمكن أن يجيب الإنسان على كل حالة بانفرادها، لذلك فمنهج هذا الكتاب قائم على أن نفترض أن الإنسان خالٍ من كل وصف حسن، فنذكر جميع ما يحتاجه في كل مرحلة إن شاء الله، والطالب المزكي لنفسه ينظر في ذلك؛ فما كان متحققاً به من المنهج الفكري والقلبي والعملي أبقاه وحافظ عليه، وما كان ناقصاً استكمله، وما كان عنده على غير وجهه صوبه إلى وجهه الصحيح، حتى يتأهل إلى مرحلة أعلى.

المقدمة الثالثة

في حكم التزكية ومكانة علم التزكية بين العلوم ونشأته وتسمياته

المقدمة الثالثة

في حكم التزكية ومكانة علم التزكية بين العلوم ونشأته وتسمياته

أولاً: حُكْمُ التزكية:

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩-١٠]، في هذه الآية وغيرها رَتَّب الله الفلاحَ ودخولَ الجنة على وجود التزكية في نفس الإنسان، ورتب الخيبة ودخول النار على عدم التزكية، فدل ذلك على أن التزكية أمر واجب ـ في الجملة ـ لا ينجو الإنسان إلا به.

ومن التزكية وأعمالها ـ الفكرية والقلبية والعملية ـ ما أوجبه الله تعالى، ومنها ما هو مندوب، فيكون أصل الفلاح مترتباً على واجباتها، ويكون كمال الفلاح وزيادته مترتباً على مندوباتها، وعلى ضَوء هذا نقول:

إذا كانت التزكية تتعلق بالعقائد، كتطهيرِ الإنسانِ فكرَه من الشكوك في صفات الله وكتابه واليوم الآخر، فالتزكية التي يحتاجها هذا الإنسان هي من أعلى الفرائض، لأنها قضية إيمان واعتقاد(١).

ولأجل ذلك فعلى كل إنسان أن يستعمل فكره، ويبحث عن حقائق الإيمان، ويطلب فهمها ويتعرف على أدلتها، حتى يصل إلى الاقتناع بها، فيكون إيمانه واعتقاده صحيحاً.

ـ وقد يكون الفعل الذي نزكي به أنفسنا مندوباً، لكنه وسيلة إلى تحقيق

---

(١) هناك فرائض إيمانية اعتقادية إذا تركها الإنسان كفر، وهناك فرائض فقهية عملية إذا تركها الإنسان صار فاسقاً.

فرض من الفرائض؛ فيصير المندوب واجباً لأجل ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1]، وبناءاً على هذا نقول:

لما كانت تزكية النفس هي السبيلُ لتحقيق أوامر الله وترك معاصيه؛ فإن التزكية تصير واجبة وفرضاً حيثما كانت وسيلةً لإقامة فروض العين، من إتيان فريضة أو ترك معصية.

وتكون التزكية مندوبة حيثما كانت وسيلة لإقامة المندوب.

فإذا كنت لا أستطيع أن أصلي ولا أصوم وأتهاون في هذا؛ فيجب علي أن أسير في طريق التزكية حتى أصل إلى حالة أستطيع معها إقامة الفرائض وترك المحرّمات والمعاصي، وما دام هناك معصية واحدة وجب علينا أن نزكي أنفسنا منها، ونسير في طريق التزكية حتى نتخلص من هذه المعصية، سواء كانت معصية ظاهرة أو قلبية[2].

وإذا كان الأمر دون ذلك كأن يكون الإنسان قائماً بفرائضه تاركاً للمحرمات لكنه لا يجتهد في النوافل، فعندئذ تكون التزكية مندوبة، ليكون الإنسان أكثر قرباً من الله.

---

(١) وهي قاعدة أصولية مقرَّرة عند العلماء، لها أدلتها في الشرع، لكن لا بد أن يكون ما يتحقق به الواجب أمراً مشروعاً أيضاً، لأن الغاية لا تبرر كل وسيلة في ديننا، فلا بد أن نبحث عن وسائل مشروعة، فإذا لم نجد؛ وكانت هناك ضرورات حقيقية فالشرع يسمح ببعض الوسائل الأخرى.

(٢) وليس المقصود هنا التوبة وحدها، فهي مطلوبة وهي مما يزكي النفس، ولكن العاصي قد لا يجد القدرة على التوبة النصوح، فلا يزال يرجع إلى الذنب؛ فيحتاج أن يستعمل أموراً أخرى كصحبة الصالحين والإكثار من العبادات حتى يقوى على التوبة النصوح الخالصة التي لا رجوع بعدها إلى الذنب.

والعاقل الذي يحرص على مصالحه لا يكتفي بالأدنى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، بل ينافِس في الخير ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وكل وسيلة مشروعةٍ تتوصل بها إلى التزكية من علم أو مجاهدة للنفس أو صحبة للصالحين أو ذكر أو غير ذلك؛ تأخذ حكم ما تؤدي إليه من تثبيت الإيمان أو إقامة الفرائض أو التحقق بالفضائل(١).

فمثلاً من كان في أعماله رياءٌ أو كان في نفسه غرورٌ؛ وجب عليه أن يبحث عن طريق تزكية نفسه، وأن يسلُكَ ذلك ليتخلص من أمراض القلوب هذه، وتزكية النفس التي هي وسيلةٌ إلى الشفاء من هذه الأمراض تكون عندئذ فريضةً.

ومن كان يتكاسل عن صلاته المفروضة، أو يتأخر عن أداء زكاته، أو كان على حال بحيث يمكن أن يفر من الزحف؛ يجب عليه أن يسلك طريق

---

(١) بينّ أبي الشيخ سعيد حوى رحمه الله أن فروض العين تتلخص بالعلم والعمل والحال القلبي والنفسي، فقال في الكلام عن الحال القلبي والنفسي: «ثالثاً: الحال القلبي والنفسي: ويدخل في ذلك أن يكون قلبه سليماً وفطرته مستقيمة ونفسه مزكاة، وهاهنا نلفت النظر إلى أن ما يوصل إلى مثل هذه المعاني المفروضة فهو فريضة، ومن هاهنا نقول: قد تكون بعض الأمور في الأصل مندوبة، فإذا تعينت كطريق للوصول إلى هذه الأحوال الشريفة فإنها تصبح فريضة، ومما يدخل في مثل هذه الفريضة:

أ. التحقق بالإيمان والإخلاص والتوكل والزهد في الدنيا ومحبة الله ورسوله.

ب. الخلاص من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان والإثم والأمراض القلبية، من مثل الحسد والرياء والغل والحقد وأمثال هذه الأمراض». من كتاب كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر، الرسالة الثانية: فلنتذكر في عصرنا ثلاثاً: فروض العين، فروض الكفاية، لمن تدفع صدقتك: ص٥٤، ثم ذكر أقوال بعض العلماء التي تؤكد قاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

التزكية ويمضيَ في أسبابها ووسائلها وأعمالها، ليكون على حالة يقيم فيها فريضة الصلاة والزكاة والجهاد.

ومن كان يقع في معصية أو كبيرة، نتيجةَ صحبتِه لأهل السوء؛ وجب عليه أن يترك صحبتهم، ويكون تركُه ذلك تزكيةً لنفسه يحقق بها فريضة ترك المعصية.

ومن لم يصل إلى حال يستطيع معها غض البصر إذا رأى محرماً، وجب عليه أن يسلك طريق التزكية ليرتقي إلى ترك هذا المحرَّم.

وكذا من كان لا يستطيع ترك شرب الخمر أو ترك التعامل بالربا؛ فإن من الواجب عليه أن يطلب ذلك القدر من التزكية الذي به يمتنع عن هذه الكبائر وينحجز عنها.

والمسلم العاقل يتطلع إلى أن يكون من أهل المنازل العليا والدرجات الرفيعة، يتطلع إلى أن يكون أقرب إلى الله، وأن يكون أزكى حالاً وأطهر فؤاداً، وأكثر استقامة، فإذا وجد من نفسه تقصيراً في صلاة الجماعة، بحث عن تزكية نفسه ليكون أقدر على إقامة الجماعة وحضورها، وإذا وجد ضعفاً في خشوعه بحث عن تزكية نفسه ليكون أجمع قلباً وأكثر حضوراً، وإذا وجد عجزاً عن ترك الفراش إلى قيام الليل؛ بحث عن تزكية نفسه التي تجعله أبعد عن شهواته وأقرب إلى قرباته، فلا يزال يبحث عن كل خير وفضيلة وتقوى وطاعة حتى يقارب الكمال، فتكون نيتُه عاليةً خالصة، ويكون كلامُه سديداً، وعمله مستقيماً، وخاطره سليماً، وإيمانه يقيناً راسخاً.

ولا يزال المؤمن العاقل يطلب المزيد من التزكية، يطلب **حدها الأعلى** والأكمل وهو أن يشابه رسول الله ﷺ ويتشبه به قدر استطاعته، ويتابعه في

كل شيء، ظاهراً وباطناً، وعلماً وعملاً، ومعاملةً وهيئةً، وخُلُقاً وعبادة، وحالاً وصفاءاً، ودعوة وتعليماً، وجهاداً وحكماً.

ـ والتزكية والهداية تحتاج إلى اتخاذ الأسباب وبذل الجهد حتى يتحقق فيها الإنسان، لكن قد يمن الله تعالى على عبد من عباده فيعطيه التزكية والهداية من غير جهد منه ولا سعي، قال تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، فالذي أناب اتخذ أسباب الهداية واجتهد، والذي اجتباه الله خصه وأعطاه واختصر عليه الطريق، فصارا على السواء في التحقق في الهداية.

والإنسان لا يعلم الغيب، فلا يدري هل يكون ممن يختصه الله ويجتبيه، أم لا يكون، لذلك فالواجب الشرعي أن يتخذ الأسباب، ولا ينتظر ولا يركن إلى شيء غيب عنه، لا يدري كتب له أم لم يكتب، فالواجب العمل والاجتهاد على الجميع، فالكل مكلفون بطلب الهداية والسعي إليها، فإذا أكرمك الله وأعطاك واجتباك فاشكر الله وازدد في طلب الهداية، واستعمل ما أعطاك الله في التقرب إليه والعبودية له.

ثانياً: حكم طلب علم التزكية:

تبين لنا أن هناك حداً واجباً من التزكية، وهو القدر الذي يحقق به الإنسان الإيمان ويقيم به الفرائض ويستطيع ترك المحرمات؛ إن ما يتعلق بهذا القدر من التزكية من علم يجب على الإنسان أن يتعلمه، لأن تعلُّمه أحدَ السبل اللازمة لتحقيق التزكية الواجبة.

وما زاد على هذا القدر من علم التزكية فهو مندوب إليه.

والعاقل الباحث عن خيره ونفعه يحرص على مزيد العلم كما علم الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وإذا كان لا بد من هذا العلم في حده الواجب، وإذا كان هذا المندوب من هذا العلم له فضله الكبير وخيره الكثير؛ فلا بد أن يعرف الطالب من أين يأخذه؟ وعمن يأخذه؟ وما هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه حتى يضمن سلامة السير وحسن النتائج؟

كل هذا سيأتي بيانه من خلال الفصول القادمة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: التزكية وعلم التزكية:

التزكية حالة يعيشها الإنسان، إذ هي الصلاح والتطهير والترقية، فهي حالة يعيشها الإنسان، وهذا الصلاح والتطهير والنماء والرقي والسمو إنما يُدرك كغيره من الموجودات والأفعال من خلال العلم والمعرفة.

فالتزكية لا يكفي أن تأخذها علماً، بل تعرفها بالعلم لتعمل بها، والعلم الذي يُتَوصَّل به إلى التزكية هو الذي يسمى علم التزكية.

وبعض العلم يشكل جانباً من التزكية بما يعطي من طهارة للفكر والعقل، وسمو فيه، وبما يدل على أعمال التزكية.

وليتضح الفرق بين التزكية وعِلْم التزكية نضرب هذا المثال:

لو أن العبد جاهد نفسه فامتنع عن شهوة أو معصية، فاستطاع أن يترك المعصية، فإنه قد زكى نفسه في هذا الأمر، لكنه إذا عَلِم أن مجاهدة نفسه والصبر يكونان سبباً في القدرة على ترك المعصية والشهوة؛ فإن ذلك جزء من علم التزكية، فلم يكن علمُه بمفرده تزكيةً، وإن كان وسيلة إلى تزكية نفسه إذا عمل به.

ولأجل هذا نؤكد أن التزكية لا ينبغي أن تقف عند طلب العلم وجمع المعلومات، وإنما تحتاج إلى اتخاذ وسائلها والعمل بها حتى يتحقق الإنسان بها.

وعلم التزكية يشمل جانبين:

الأول: جانب يُعَرِّفُ بالتزكية من حيث صفاتها، التي إن وجدت عند الإنسان وصفناه بأنه من أهل التزكية، كأن نقول إن المزكَّى يكون صادقاً متواضعاً مخلصاً لله، قائماً بفرائضه مجتهداً في النوافل، ذاكراً أديباً حليماً، لا يشرك بالله ولا يعصيه، لا يؤذي الآخرين وينفعهم ما استطاع...

الثاني: جانب يُعَرِّف بكيفية تحصيل التزكية، والوسائل التي توصل إلى الاتصاف بصفات التزكية، كأن تقول: إن الصدق باللسان سبب في صلاح حال الإنسان كله، فإذا أصلح الإنسان لسانه سيجد أن كثيراً من أحواله ستتغير[١].

وكأن تقول: إن الصوم سبب في ضعف الشهوة وغض البصر، وإن صحبة الصالحين سبب في التخلق بالأخلاق المحمودة، وإن ترك السهر والنوم مبكراً سبب معين على قيام الليل وصلاة الفجر في جماعة.

وموضوعات هذا الكتاب تتناول بإذن الله بيان أهم ما في هذين الجانبين اللذين يشملهما علم التزكية.

رابعاً: علم التزكية ومكانته بين العلوم:

العلوم الشرعية التي يحتاجها كل إنسان وينبغي أن يعرفها كل مسلم ثلاثة علوم: علم الإيمان وعلم الفقه وعلم التزكية.

---

(١) كما سيأتي بيانه وأدلته في موضعه.

أما باقي العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والسيرة والأصول واللغة؛ فهي علوم يحتاجها العلماء والمجتهدون ليستنبطوا من خلالها تلك العلوم الثلاثة، فهذه العلوم وسيلة لمعرفة الاعتقاد السليم والفقه الصحيح والتزكية الربانية.

والله تعالى بعث لنا النبي ﷺ ليعلمنا العلوم الثلاثة، قال سبحانه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، **فمهمات الرسول** ﷺ:

١. تلاوةُ القرآن وتبليغ آياته، وبه تحصل معرفة الله والإيمان به: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال: ٢]، فالوظيفة الأولى للأنبياء تؤدي إلى معرفة **الآمرِ**، اللهِ الذي أمر خلقه.

٢. التزكية للمؤمنين، وهي في حقيقتها تطهرٌ من أمراض الإنسان الظاهرة والباطنة، وتحققٌ بمقامات العبودية لله من طاعة وصبر ورضا وشكر وتوكل على الله وزهدٍ في الدنيا، وتخلقٌ بأخلاق المصطفى ﷺ، فالوظيفة الثانية للأنبياء تؤدي إلى معرفة **المأمور**، الإنسانِ الذي توجهت أوامر الله إليه لتطهيره وترقيته.

٣. والمهمة الثالثة للأنبياء: تعليم الكتاب والحكمة، لِتَعرِف من خلال ذلك ما يريد الله أن يعلمك إياه، ولتَعرِفَ بذلك أحكام الله، فالوظيفة الثالثة للأنبياء تؤدي إلى معرفة **الأوامر**، التي هي الأحكامُ التي وجهها الله لخلقه ليصلحهم بها.

فعلم التزكية يشكل جانب معرفة النفس التي يجب أن تَعرِف اللهَ وأحكامَه وتعملَ بأوامره، فالتزكية ليست هي كل شيء في الدين وإنما هي

جزء منه، تتكامل مع الإيمان والعقيدة الصحيحة، ومع الفقه بأحكام الدين والعمل بها، فعلى طالب التزكية أن لا ينسى ما تتصل به التزكية من إيمان وفقه وعمل.

وإذا عرف الإنسان ربه، وعرف أحكام ربه، وكانت نفسه غير مزكاة؛ فإنه لا ينتفع من معرفته بالله وبالأحكام، فكان مدار النجاةِ والفائدةِ على وجود التزكية، وهذه أمثلة توضح ذلك:

إذا كان الإنسان صاحب اعتقاد صحيح لكنه لم يعمل بما يقتضيه اعتقاده فإنه لا ينتفع من اعتقاده الانتفاعَ المطلوب، فمثلاً من يعتقد بأن الله هو الرزاق لكنه يعتمد على الأسباب ولا يلجأ إلى رب الأسباب، ويخاف من الفقر لنسيانه أن الله متكفل به رازق له، فيأخذ من المال الحرام خشية الفقر والحاجة، فهذا لم يُقِم وزناً لاعتقاده وإيمانه، ولم ينتفع عملياً من اعتقاده؛ والعلم الذي يدله على طريقة الانتفاع من اعتقاده هذا هو علم التزكية، فإذا تزكت نفس الإنسان توكل على الله واعتمد عليه، وزال هم الرزق عنه، واكتفى بالحلال من الرزق الذي أذن الله به.

وقد يكون الإنسان فقيهاً بصلاته وزكاته وما شرعه الله وندب إليه، لكنه لا يعمل بذلك، فالتزكية ترقيه إلى أن يهتم بأحكام الله، ويجتهد في طاعة الله، فإذا تزكت نفس الإنسان استفاد من فقهه وعلمه، وإن كانت نفسه مدساة خبيثة فإنه لا ينتفع من علمه وفقهه، لذلك كان الفلاح مرتبطاً بالتزكية لا بعلم الاعتقاد والفقه وغيرهما، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

ولكن هل يعني هذا أن التزكية أهم من العلم ومقدمة عليه، وأنه لا حاجة لعلم العقيدة والفقه؟

خامساً: هل يقدم العلم على التزكية أم تقدم التزكية على العلم أم يتكاملان:

وما دامت التزكية غير العلم في الجملة؛ فأيها أهمّ: العلم أم التزكية، وهل يستغني أحدهما عن الآخر، وأيها يُقدَّم على الآخر، أو يُطلَب قبل الآخر؟

لقد عطف الله تعالى العلم على التزكية، وعطف التزكية على العلم، في كتابه، وهذا يفيد أنهما مطلوبان معاً، ويفيد أن العلم غير التزكية، لأن العطف يفيد المغايرة، أي يدل على أن المعطوفَ غيرُ المعطوفِ عليه، كما يقول أهل اللغة.

قال الله تعالى ذاكراً دعاء إبراهيم ﷺ لذريته: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، قدم الله تعالى في هذه الآية العلم على التزكية.

وقال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

قدم في هذه الآيات وغيرها التزكية على العلم، وفي الوقت نفسه قدم تلاوة الآيات على التزكية وتلاوة الآيات تعطي علماً.

فليس يُغني علم عن تزكية، ولا تُغني تزكية عن علم، ألا ترى أن علم العالم لا يدخله الجنة وحده، فقد يكون الإنسان عالماً ومع ذلك يستحق النار، قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد... **ورجل تعلم العلم وعلمه**، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما

عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به **فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله...»(١).

فانظر كيف أن العلم وحده على أهميته ولزومه لم يكن كافياً لنجاة صاحبه، وذلك إذا لم يعمل به أو لم يخلص فيه لله، والإخلاص من التزكية، والعمل بالعلم من التزكية، فالتزكية هي التي تضع العلم في محله الصحيح وتعطي النفع من العلم، وتحمل صاحبها على العمل به، فاستحقت التقديم من هذا الوجه.

والعلم ما لم يتقدمه رغبة النفس بالخير والحق فإنه لا يجد المحل الصحيح عند الإنسان، ولا يقع موقعاً ينتفع منه طالب العلم، وهذه الرغبة من تزكية النفس، وهذا ما نبَّه إليه النبي ﷺ فيما حدَّث به: «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم عَلِمُوا** من الكتاب ثم علموا من السنة»(٢)، فكان في القلوب شيء بُنِيَ عليه العلم: «ثم علموا».

كثير من الناس يَعْلَمون عقائدهم ويعتقدون صحتها ويؤمنون بها عقلاً، لكنهم لا يتصرفون بمقتضاها، فتجد أحدَهم يعلم أن الله يراه، ويعتقد أن الله يراقبه، ولكنه يعصي الله تعالى، ويعمل ذنباً لا يمكن أن يعمله أمام رجل أو طفل، لكنه يعمله بين يدي الله.

وتجد كثيراً من الناس يعلمون حرمة فعل أو قول، ومع ذلك يأتونهما، وهذا لنقص في التزكية، فالعلم مع كونه ضرورياً ومطلوباً؛ فإنه وحده لا يكفي، لأنه لا يحجز بمفرده عن المعصية.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٩٠٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧٠٨٦.

أما تقديم العلم على التزكية فوجْهُه أن التزكية ـ كما بيّنا ـ تطهير مما نهانا الله تعالى عنه، وترقية فيما أمرنا الله تعالى به، وما نهى الله عنه وما أمر به إنما يُعرفُ بالعلم، فلا تكون تزكية قبل أن يتعلم ما به يتزكى.

كما لا تكون تزكية صحيحة مع اعتقاد باطل، ولا تكون تزكية إلا على وفق العقيدة الحق، وفيما سيأتي من حديث عن العقل ومعلوماته وأنها أساس لغيرها من التزكية ما يبين أهمية العقيدة في تزكية النفس، وأن التزكية لا تكون بلا اعتقاد صحيح، والاعتقاد الصحيح متوقف على علم صحيح.

ومالم يكن الإيمان موجوداً فلا قيمة لهذا العلم، ولا أساس له ينبني عليه، وما لم يكن إيمانٌ فلا رغبة في العمل، وما لم يكن إيمانٌ فلا تزكية، لأن أهم التزكية أن تطهر اعتقادك من الباطل، وكيف تزكو نفس وهي تُنكِر أعظم حقيقة في الوجود: حقيقةَ وجود الله وألوهيته وربوبيته وصفاته.

ولا تكون تزكية الجوارح إلا أن تكون أعمالُها على وفق أحكام الله، وهو علم الفقه، فلزم لكل من يريد أن يزكي نفسه أن يتعلم عقيدته وفقهه.

والآيات السابقة ذكرت تلاوة الكتاب والتزكية والعلم، ولم تذكر العمل، وليس ذلك إغفالاً للعمل وأهميته، ولكن العمل هو ثمرة طبيعية ونتيجة أكيدة لهذه الثلاثة، فمتى وُجِدَتْ وُجِدَ العملُ.

سادساً: الفرق بين وظيفة المربي المزكّي ووظيفة عالم العقيدة والفقيه:

عمل مدرس العقيدة أن يقنعك بمسائل العقيدة.

وعمل مدرس الفقه أن يعرفك بأحكام الأعمال.

وعمل مدرس التزكية أن يجعلك تعتقد وتؤمن بمسائل العقيدة وتذعن

لها، وعمله أن يحملك على العمل بأحكام الفقه، وأن يعالج الأسباب التي تحول دون اعتقادك بالحق وعملك بالحكم.

فمثلاً عالم العقيدة يُثْبِت للطالب أن الله موجود، والمُرَبِّي والمزكِّي يحرص أن يعالج أسباب إنكار وجود الله عند الإنسان، من كِبْر أو اتباع هوى أو حسد لمن جاء بالحق.

وعالم العقيدة يُثْبِت للطالب بأن الله إله يعبد، وعالم التزكية يحرص على أن يُثَبِّتَ هذا الاعتقاد عند الطالب، وأن يذكره به في أوقاته وأعماله وعباداته، فيستشعر معنى العبودية في كل حال.

عالم الفقه يعرِّف الطالب بأن قيام الليل سنة، وشيخ التزكية يحرص على أن يُرَغِّبَ الطالب بقيام الليل، ويذكره بفضيلة ذلك وأثره في صلاح نفسه وعلو مرتبته عند ربه، ويحذره مما يُفوِّت عليه القيام، ويذكره به مرة بعد مرة، ويبين له كيف يستفيد من قيام الليل بالخشوع لله والتذلل له والرجاء منه والحب له.

والفقيه يُعرِّف الطالب بأن الفرار من الزحف في المعركة حرام وكبيرة، والمزكِّي يحرص على أن يوجد في نفس الطالب ما يمنعه من الفرار في المعركة، فيُذَكِّره بأن القتال لا يُقَرِّب أجل الموت، وترك القتال لا يُبعِد الأجل، بل الأجل راجع إلى قدر الله ومشيئته، وأن الجَرْح والأذى لا يكون إلا بإرادة الله ومشيئته، وأن أجر الثبات في القتال في سبيل الله كبير، وأجر الشهادة ونعيمها إن جاءت عظيم، وأن الإنسان إنما خلقه الله لعبادته وطاعته، فإذا جاء أمر الله وحكمُه للإنسان أن يضحي بنفسه لأجل الله، فعليه أن يكون راضياً بحكم الله، فالعبد المخلوق يجب أن يكون موته لله، كما يجب أن تكون حياته وأعماله وما عنده كلها لله.

ومن تتبع الآيات القرآنية والكلام النبوي يجد أن نصوص الشرع لم تكن تفرق بين هذه العلوم، ولم تكن تميزها عن بعضها، فلا تجد الآيات تخصص موضوعاً أو سورة للفقه وموضوعاً للعقيدة وموضوعاً للتزكية، بل الآيات يتبع بعضها بعضاً بحقيقة عقائدية ثم بحكم فقهي ثم بأمر تزكوي.

بل تجد الآية الواحدة تخاطبك بإيمانك وتعطيك حكماً وتحرك في نفسك ما يزكيها، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]، فالآية تذكر حقيقة أن الله عفو غفور، وهذا اعتقاد، وهي تحث على التوبة من خلال ذلك، وهذا أمر تزكوي، وتَذْكر تحريم الظهار، وهو حكم فقهي، وتربط الحكم بأمر تزكوي، وهو منع الكذب والقول المنكر الزور.

والنبي ﷺ لم يكن يخصص درساً للعقيدة وآخر للفقه وآخر للتزكية وآخر للتفسير وغير ذلك.

وتجد في سنته ما يعطي حقيقة إيمانية اعتقادية، وما يعطي حكماً فقهياً، وما يخاطب النفس الإنسانية ويزكيها، مثاله ما أخرجه البخاري أَنَّ حُمْرَانَ بْنَ أَبَانَ أَخْبَرَهُ قَالَ أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِطَهُورٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا تَغْتَرُّوا»[1].

فأفاد الحديث ندب الوضوء ثم ركعتين في المسجد، وهذا حكم فقهي، وحث على تحسين الوضوء، وهذا حكم تزكوي، وحث على الفعل بذكر أجره

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٦٩.

وهذا أمر تزكوي، ثم نهى عن الاغترار بالأعمال الحسنة، وهذا حكم تزكوي يُذكِّر بحقيقة إيمانية، وهي أن العبد ينبغي أن يبقى على درجة الخوف من الله، وأن لا يأمن مكر الله، وأن لا يركن إلى أعماله.

وإنما فرق العلماء بين هذه العلوم لما وُجِدَ التخصص والتوسع في العلوم، فصار العالم يتخصص بعلم واحد ويُدَرِّسُه منفصلاً عن غيره من العلوم، لأنه ليس في وُسْع كل عالم أن يحيط بكل العلوم الشرعية.

وكما وُجِد في زمن التابعين ومن بعدهم من يتخصص بعلم الفقه أو بعلم العقيدة أو بعلم الحديث وروايته أو بعلم الرجال أو بعلم التفسير أو بعلم السيرة والمغازي؛ وُجِد من يهتم بعلم التزكية وتدريسه والتربية عليه.

وواجب الطالب إن لم يجد عالماً يجمع بين العلوم، أن يأخذ من كل عالم علمه، فلا يقتصر على عالم واحد، ويترك باقي العلوم التي لا يتقنها شيخه وعالِمُه، وخاصة علم العقيدة والفقه والتزكية.

ـ ولما كان النبي ﷺ يتولى وظيفة إيصال الإيمان وتقويته ووظيفة تعليم الشريعة وأحكامها ووظيفة التزكية، فلنأخذ أمثلة من تزكيته لأصحابه:

سابعاً: نماذج من تزكية النبي ﷺ لأصحابه:

مر معنا أن من وظائف النبي ﷺ تزكية أصحابه، وهذه نماذج نذكرها من تزكيته لأصحابه رضي الله عنهم:

ـ سمع رسول الله ﷺ بعض الناس يقولون: (ما شاء الله وشئتَ) فقال ﷺ: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»(1)، ومعلوم أن الصحابي حينما يقول: (ما شاء الله وشئت) يعلم أن

(1) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٣٣١٣ وأبو داود رقم ٤٩٨٠ =

مشيئة رسول الله ﷺ ليست كمشيئة الله عز وجل، وأن مشيئة الله غالبة، فإذا لم يشأ الله شيئاً فلا مشيئة لغيره، لكن ظاهر عبارته يُشعِر بأنه يُسوِّي بين مشيئة الله ومشيئة غيره، فيُخشى أن يُظن به أنه يعتقد اعتقاداً باطلاً، فصحح له ﷺ عبارته، وعلَّمنا كيف نقول، بما لا يورث إشكالاً عند الآخرين إذا سمعوا هذه العبارة، فقال له: «قل: ما شاء الله ثم ما شاء فلان» وفي هذا تطهيرٌ وتزكيةٌ لأقوال الإنسان وعباراته، وتزكيةٌ للاعتقاد من أن يدخله الباطل، وتنبيهٌ إلى التأدب بعدم الإخلال بالتوحيد لله أدنى إخلال.

ـ قال ﷺ لأبي أمامة الباهلي ﷺ حينما طلب منه أن يدله على عمل ينفعه ويدخله الجنة، فقال ﷺ: «عليك بالصيام[1] فإنه لا عِدْلَ له»[2]، والنبي ﷺ بهذا التوجيه يريد تزكيته، فيحركه إلى التزكية من خلال عمل ظاهر هو الصيام، مبيناً له أن لا عِدْلَ له، أي لا مثيل له في الأجر ولا مثيل له في أثره في تزكية النفس، إذ كل عبادة لها أثرها الخاص في تزكية النفس.

وقد عمل أبو أمامة بوصية رسول الله ﷺ، فما رؤي أبو أمامة ولا امرأته ولا خادمه إلا صياماً، قال أبو أمامة: فلبثت بذلك ما شاء الله ثم أتيته فقلت: يا رسول الله أمرتنا بالصيام فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه، يا رسول الله فمرني بعمل آخر، قال: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[3]، وهذا أيضاً توجيه آخر إلى عمل يكون سبباً

= والنسائي في سننه رقم ١٠٨٢١ عن حذيفة ﷺ، وللحديث شواهد.

(١) وفي رواية: «بالصوم».

(٢) أخرجه ابن حبان رقم ٣٤٢٦ وفي رواية: «لا مثل له» والحاكم وصححه رقم ١٥٣٣.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٢١٩٤، والنسائي في السنن الكبرى نحوه رقم ٨٦٩٨، والعبارة الأخيرة قال النبي ﷺ نحوَها لثوبان ﷺ أيضاً، كما في حديث مسلم رقم ٤٨٨.

في التزكية، شجعه عليه بما ذكر من أجره العظيم وتطهير النفس به من الذنوب والخطايا.

ـ قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[1]، فوجهه إلى المحافظة على عمل كان يعمله، يريد تزكية عبد الله بذلك ودفعه إلى عمل صالح يزيده طهارة وقرباً من ربه، ويعلمه المحافظة على الأعمال لما فيها أيضاً من المحافظة على صلاح النفس.

ـ أتى شابّ إلى النبي ﷺ وقد اشتدت شهوته وغلبت عليه حتى صار يفكر بالزنا، ولكنه مع ذلك لم يستعجل إلى الحرام فجاء يستأذن رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله ائذن لي بالزنا»، فلم يزجره النبي ﷺ ولم يوبخه أو يستحقره، ولكنه طهره من الميل إلى الفاحشة وزكاه بالإقناع والدعاء.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، قال: فصاح القوم به وقالوا: مَهْ مَهْ[2]، فقال رسول الله ﷺ: أُدْنُهْ[3]، فدنا حتى كان قريباً من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، فقال رسول الله ﷺ: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، ثم ذكر مثل ذلك في العمة والخالة، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له، فوضع رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٠١ ومسلم رقم ١١٥٩.

(٢) أي اسكت.

(٣) أي قَرِّبْ مني.

يده على صدره، وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»، فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١)].

فنبَّه عقل الشاب من خلال هذه الأسئلة، ونأخذ من هذا قاعدة؛ أن من أعظم ما يزكَّى به الإنسان الفكرةَ الصحيحة التي تُقنِع الإنسان، وتُغْرَسُ في عقله وقلبه، ثم دعا النبي ﷺ وهذا سبيل لتزكية الآخرين أيضاً فخرج وقد طارت الشهوة من قلبه وفكره.

ـ عن أبي بن كعب ﷺ قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فَقَرَأَا، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية[(٢)]، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فَرَقاً[(٣)]، فقال لي: «يا أبي أرسل إلي أنِ اقرإ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هَوِّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ»[(٤)].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده ج٥ ص٢٥٦ رقم ٢٢٢٦٥ والبيهقي في شعب الإيمان ج٤ ص٣٦٢ رقم ٥٤١٥ والطبراني في الكبير.

(٢) أي شك بالنبي ﷺ أكثر من شكه الذي كان عنده قبل أن يُسلم.

(٣) «فرقاً»: شدة الخوف والهيبة والخشية.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٨٢٠.

فهاهنا كانت تزكية النبي ﷺ على سبيل المعجزة الخارقة، فبضربة من سيدنا نبي الله ﷺ على صدر أُبيّ انتقل أُبيّ من حالة شك وتكذيب تزيد على حالة الجاهلية إلى أعلى مقامات الإحسان وكأنه يرى الله، وحصل له فيها من تعظيم الله والهيبة منه شيئاً عظيماً وهو ما عبر عنه بقوله: «فَرَقاً» أي من شدة الخشية.

ـ وكان من تزكية النبي ﷺ لأصحابه أنه قد يتدخل بالفعل أحياناً لصرف أصحابه عن الشر ودفعهم إلى الخير، كما فعل مع الفضل فيما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، قال: «كان الفضل رديف رسول الله ﷺ فجاءت امرأة من خثعم[1]، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع»[2].

وقد أمرنا النبي ﷺ أن نقتدي بأفعاله، فقال: «وصلوا كما رأيتموني أصلي»[3]، وقال: «لتأخذوا [عني] مناسككم»[4].

ـ وقد كانت أفعالُ رسول الله ﷺ وأقوالُه بجمالها وكمالها سبيلاً من أعظم سبل تزكيته لأصحابه، تدعوهم إلى متابعته والاقتداء به، لما يرون من حُسن حاله ومقاله وفعله، فالقدوة الحسنة من وسائل تزكية الآخرين،

(١) في رواية مسلم هنا زيادة كلمة: «تستفتيه».

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٤٤٢ ومسلم ١٣٣٤.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٥٦٦٢ عن مالك بن الحويرث ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٢٩٧ عن جابر ﷺ. ولفظة عني في الحديث ليس في رواية مسلم، وروي الحديث عند غيره بلفظ: «خذوا عني مناسككم».

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكما أن رسول الله ﷺ كان من وظيفته أن يزكي أصحابه؛ فإن هذه الوظيفة تنتقل إلى وُرّاثِ النبي ﷺ مِن بَعده، الذين ورثوا من علمه وورثوا من عمله وورثوا من صلاحه وحاله ومن دعوته وجهاده ﷺ ، فمِنْ واجبِ العلماء والصالحين والمربين أن يقوموا بتزكية الناس بالقول السديد والحال الطيب والقدوة الحسنة.

ومن استطاع منا أن يزكي نفسه بالأخذ بالأسباب الموصلة إلى التزكية بعد عون الله، يمكن أن يتأهل لأن يزكي غيره، وإذا فشلنا مع أنفسنا؛ فمن باب أَوْلى أن نفشل مع غيرنا، إذ كيف أحرص على الخير لغيري وأنا لا أحرص على الخير لنفسي، فإذا لم أحرص على الخير لنفسي فهذا دليل على أني كاذب في دعوايَ الحرص على الخير لغيري.

ثامناً: استمداد هذا العلم ونشأته والتعامل مع مصنفاته:

استمداد هذا العلم:

علم التزكية مأخوذ من الكتاب والسنة، فمنهما يُستمد ويُستنبط، فهو علم راجع إلى الله سبحانه تشريعاً، وإلى رسوله ﷺ تبليغاً.

نشأة هذا العلم وأئمته ومصنفاته:

العلماء حينما يتكلمون عن واضع عِلمٍ ما وعن نشأة العلم؛ يقصدون بواضع العلم أوّلَ من أَلَّف فيه، أو أولَ من اهتم بهذا الجانب علمياً، فميَّزه عن غيره حتى صار عِلْماً منفصلاً عن غيره.

لقد كان لجميع أصحاب رسول الله ﷺ اهتمام بالتزكية من الجانب العملي، فلا شك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أعظم أهل التزكية، ومما لا شك فيه أن علماء الصحابة كانوا يعلمون جوانب التزكية ويتكلمون فيها، كما يعلمون الإيمان والفقه وأمور الدين، فأوصلوا الدين إلى غيرهم كما حملوه عن رسول الله ﷺ مهتمين بجميع جوانبه وعلومه.

لكنا نجد أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان لهم اهتمام أكثر من غيرهم بجانب التزكية وتعليمه وتدريسه والوعظ فيه، فكان من أبرزهم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه(١) ....

(١) أبو ذر: هو جندب بن جنادة الغفاري رضي الله عنه، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، قيل: كان خامس خمسة في الإسلام، بقي شهراً في مكة قبل إسلامه لا يأكل ولا يشرب إلا من ماء زمزم، وقد سمن به، رجع إلى بلاد قومه بعد إسلامه بأمر النبي ﷺ، فأسلم نصفُهم، فلما أن هاجر النبي ﷺ هاجر إليه، ولازمه، وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، روى عنه: ابن عباس، وأنس بن مالك، وابن عمر، وغيرهم من الصحابة والتابعين. كان رأسا في الزهد، والصدق، والعلم والعمل، قوالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، على حدة فيه. وقد شهد فتح بيت المقدس مع عمر. قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». روي بإسناد صحيح عن ابن سيرين: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «إذا بلغ البناء سَلْعاً [أي جبل سَلْع] فاخرج منها ـ ونحا بيده نحو الشام ـ ولا أرى أمراءك يدعونك»، قال: أوَلا أقاتل من يحول بيني وبين أمرك؟ قال: «لا» قال: فما تأمرني؟ قال: «اسمع وأطع، ولو لعبد حبشي»، فلما كان ذلك، خرج إلى الشام، فكتب معاوية: إنه قد أفسد الشام، فطلبه عثمان، فطلبه عثمان ; ثم بعثوا أهله من بعده، فوجدوا عندهم كيساً أو شيئاً; فظنوه دراهم، فقالوا: ما شاء الله ! فإذا هي فلوس، فقال عثمان: كن عندي، قال: لا حاجة لي في دنياكم; ائذن لي حتى أخرج إلى الربذة، فأذن له ; فخرج إليها، وعليها عبد حبشي لعثمان، فتأخر وقت الصلاة لما رأى أبا ذر، فقال أبو ذر: تقدم فصل. أخرج البخاري رقم ١٣٤٢ ومسلم رقم ٩٩٢ عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة، =

وأبو الدرداء ﷺ(١).

= فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكنّازين برَضْف [حجارة محمّاة] يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج من نغض كتفه [من عظمه الرقيق الذي على طرف الكتف]، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، فأدبر، فتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، قال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً؛ إن خليلي أبا القاسم ﷺ دعاني فقال: يا أبا ذر، فأجبته، فقال: ترى أحداً؟ فنظرت ما عليَّ من الشمس ـ وأنا أظنه يبعثني في حاجة ـ فقلت: أراه، فقال ﷺ: «ما يسرني أن لي مثله ذهباً، أنفقه كله، إلا ثلاثة دنانير» ثم هؤلاء يجمعون الدنيا، لا يعقلون شيئاً ! فقلت: مالك ولإخوانك من قريش، لا تعتريهم ولا تصيب منهم؟ قال: لا وربك، ما أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله. انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦-٧٨.

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي ﷺ، وقيل: عويمر بن عامر، وقيل غير ذلك، صاحب رسول الله ﷺ، الإمام القدوة، قاضي دمشق، وسيد قرائها، حكيم هذه الأمة، روى عنه: أنس بن مالك، وابن عباس، وأبو أمامة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم من الصحابة والتابعين، مات قبل عثمان بثلاث سنين. روي بإسناد صحيح أن أبا الدرداء قال: كنت تاجراً قبل المبعث، فلما جاء الإسلام، جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمت العبادة. أسلم أبو الدرداء يوم بدر، ثم شهد أحداً، وأمره رسول الله ﷺ يومئذ أن يرد من على الجبل من المشركين، فردهم وحده. كان الصحابة يقولون: أَتْبَعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء. روى البخاري عن أبي جحيفة: أن رسول الله آخى بين سلمان وأبي الدرداء ; فجاءه سلمان يزوره، فإذا أم الدرداء متبذلة، فقال: ما شأنكِ؟ قالت: إن أخاك لا حاجة له في الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار. فجاء أبو الدرداء، فرحب به، وقرب إليه طعاماً. فقال له سلمان: كل. قال: إني صائم. قال: أقسمت عليك لتفطرن. فأكل معه. ثم بات عنده، فلما كان من الليل، أراد أبو الدرداء أن يقوم، فمنعه سلمان وقال: إن لجسدك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً; صم، وأفطر، وصل، وائت أهلك، وأعط كل ذي حق حقه. فلما كان وجه الصبح، قال: قم الآن إن شئت ; فقاما، فتوضأ، ثم ركعا، ثم خرجا إلى الصلاة، فدنا أبو الدرداء ليخبر رسول الله بالذي أمره سلمان. =

ولعل أكثر من اهتم بجانب التزكية واهتم بالتدريس فيه من التابعين هو الإمام التابعي الكبير أبو سعيد الحسنُ البصري(١) رحمه الله المتوفى سنة ١١٠هـ.

= فقال له: «يا أبا الدرداء، إن لجسدك عليك حقا، مثل ما قال لك سلمان». وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد: سلام عليك. أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله، أبغضه الله ; فإذا أبغضه الله، بغضه إلى عباده. وقال أبو الدرداء: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقيل لابي الدرداء ـ وكان لا يفتر من الذكر ـ: كم تسبح في كل يوم؟ قال: مئة ألف، إلا أن تخطئ الاصابع. وروي عن أبي الدرداء، قال: لولا ثلاث ما أحببت البقاء: ساعة ظمأ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر. وقال أبو الدرداء قال: اعبد الله كأنك تراه، وعُدَّ نفسك في الموتَى، وإياك ودعوة المظلوم، واعلم أن قليلاً يغنيك خير من كثير يلهيك، وأن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى. مات أبو الدرداء سنة ٣٢هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٣٥-٣٥٣.

(١) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الانصاري رضي الله عنه، وكانت أم الحسن مولاة لام سلمة أم المؤمنين المخزومية، ولد في المدينة في آخر خلافة عمر رضي الله عنه، توفي سنة ١١٠هـ، عاش نحواً من ثمان وثمانين سنة، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، وكان شيخ أهل البصرة، سمع عثمان رضي الله عنه، رآى عدداً من الصحابة كعثمان وطلحة، وروى عن عدد من كبار الصحابة: كعلي، وجابر، وابن عباس، وأنس، وعمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، وسمرة بن جندب، وغيرهم، يروي عن بعضهم بالإرسال ولم يسمع منهم. وكان رحمه الله جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، حجة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً، وسيماً، مهيباً، شجاعاً، كثير الجهاد. قال عطاء: إمام ضخم يقتدى به، وقال يونس بن عبيد: أما أنا فإني لم أر أحدا أقرب قولاً من فعلٍ من الحسن. وقال عوف: ما رأيت رجلا أعلم بطريق الجنة من الحسن، من أقوال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما يلبث الحمقى، [أي أنهم لا يتوقفون فيتجاوزون الحدود بسبب كثرة الأتباع]. وعن الثوري عن عمران القصير قال: سألت الحسن عن شيء فقلت: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال: وهل رأيت فقيها بعينك ! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه. وقال السري بن يحيى: كان الحسن يصوم البيض، وأشهر الحرم، والاثنين والخميس. حدَّث الحسن في هذه الآية: =

ولعل أوَّلَ من أَلَّف وصنف في هذا العلم واعتنى بأبوابه المختلفة وأدلته ومباحثه ومسائله وأحكامِه الشيخُ أبو عبد الله الحارث بن أَسَد المحاسبي البصري(١) (ت ٢٤٣هـ) الذي ألف في هذا العلم كتاب «**رسالة المسترشدين**»، وكتاب «**الرعاية لحقوق الله**»، وكتاب «**التوهم**» وهذه الكتب موجودة اليوم وقد طبعت، وقد أَلَّف غيرها ما يزيد على خمسة عشر كتاباً في موضوعاتٍ من موضوعاتِ التزكية، أكثرها لم يصل إلينا، أو لم يطبع حتى الآن.

وقد سبقه وعاصره بعض العلماء في التصنيف في جوانب محدودة من علم التزكية.

كتصنيف الإمام أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك(٢) (ت١٨١هـ)...

= ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه. انظر سير أعلام النبلاء: ٤ / ٥٦٣-٥٨٩.

(١) الحارث المحاسبي: هو أبو عبد الله الحارث بن أَسَد المحاسبي البصري، المتوفى ٢٤٣هـ، مما قال فيه الذهبي: العارف شيخ الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية، قال الخطيب له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، قال الجنيد: خلَّف له أبوه مالاً كثيراً فتركه، وقال: لا يتوارث أهل ملتين، وكان أبوه واقفياً، وعنه قال: ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين وتركها مع نسيانها صفة العارفين، قلت [القائل الذهبي:] المحاسبي كبير القدر، وقد دخل في شيء يسير من الكلام [يعني علم الكلام] فنُقِم عليه، وورد أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وجه، وحذر منه، قال ابن الأعرابي: تفقه الحارث، وكتب الحديث، وعرف مذاهب النساك، وكان من العلم بموضع... انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠ وما بعدها، وانظر ترجمته للشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تحقيقه رسالة المسترشدين.

(٢) عبد الله بن المبارك: هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم، التركي ثم المروزي، ١١٨-١٨١هـ، كان عالم زمانه، حافظ حجة ثقة، أمير الأتقياء في وقته، جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والغزو والفروسية والقوة والسلامة في رأيه =

كتابَ **الزهد** وكتابَ **الرقاق** وكتابَ **البر والصلة**.

وتصنيف الإمام أحمد بن حنبل[1] (ت ٢٤١هـ) كتابَ **الزهد** وكتابَ **فضائل الصحابة**.

ومن الأعلام الأئمة من السلف الذين اشتهروا بعلم التزكية، وروِيت عنهم قصص وعبارات وحِكَمٌ فيه، وشهد لهم الناس في هذا العلم: إبراهيم ابن أدهم[2] ت١٦٢هـ، ....

= وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه، كان كثير الترحال في طلب العلم، كثير الإنفاق على إخوانه، يجهزهم معه إلى الحج، وكان من أول من صنف في الإسلام، انظر: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٣٧٨ وما بعدها، وقد ذكر العلماء لابن المبارك عدة كتب: كتاب الجهاد، وكتاب الزهد، وكتاب الرقاق، وكتاب «الأربعون»، وكتاب الاستئذان وكتاب البر والصلة، وكتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير، وكتاب التاريخ، انظر: الرومي، كشف الظنون، ج١، ص٥٧ وص٩١١، وج٢، ص١٢٧٥ وص١٤٢٢، والكتاني، الرسالة المستطرفة، ص٤٨ و٤٩ و٥١ و١٠٢.

(١) أحمد بن حنبل: هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، ١٦٤-٢٤١هـ، الإمام الشهير صاحب المسند، طاف البلاد ودخل الكوفة والبصرة والحجاز واليمن والشام والجزيرة في طلب العلم، روى عن إبراهيم بن سعد وإسماعيل بن علية، وروى عنه البخاري ومسلم، كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة، شهد له الشافعي فقال: «خرجت من بغداد؛ فما خلَّفتُ بها رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أفقه، ولا أتقى من أحمد بن حنبل»، حفظ الله به الدين، بما ثبت في محنة القول بخلق القرآن وتحمل من السجن والعذاب. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء** ١١، ص١٧٧-٣٥٨، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٨٩-١٩١، ترجمة رقم: ٤١٧، ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج١، ترجمة رقم ١.

(٢) إبراهيم بن أدهم: هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور الخراساني البلخي، نزيل الشام، ولد بمكة في حدود المئة وتوفي ١٦٢هـ، يروي عن أبي إسحاق السبيعي ومالك بن دينار وحدث عنه رفيقه سفيان الثوري وشقيق البلخي، وحكى عنه الأوزاعي =

وداود الطائي[1] ت١٦٥، والفُضَيل بن عِياض[2] ت١٨٧، وأبو محفوظ

= وأبو إسحاق الفزاري، قال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهاد، وكان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه، إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته ورفض الدنيا، صحب الثوري والفضيل بن عياض، قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم وليدع مخالطة الناس وإلا لم ينل ما يريد، وقال: الزهد فرض؛ وهو الزهد في الحرام، وزهد سلامة؛ وهو الزهد في الشبهات، وزهد فضل؛ وهو الزهد في الحلال. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٧/ ٣٨٧ وما بعدها.

(١) داود الطائي: هو أبو سليمان داود بن نُصَير الطائي الكوفي، ولد بعد المئة، وتوفي ١٦٥هـ، الإمام الفقيه القدوة، أحد الأولياء، كان من كبار أئمة الفقه والرأي برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه ولزم الصمت، وآثر الخمول وفرَّ بدينه، وكان الثوري يعظمه ويقول: أبصر داود أمره، وقال ابن المبارك: هل الأمر إلا ما كان عليه داود، قال ابن عيينة: كان داود ممن علم وفقه، ونفذ في الكلام، فحَذَف إنساناً، أي رماه بحَصا، فقال أبو حنيفة يا أبا سليمان طال لسانك ويدك، فاختلف بعد ذلك سنة لا يسأل ولا يجيب، من أقوال داود: كفى باليقين زهداً، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً، وقال عطاء بن مسلم: عاش داود عشرين سنة بثلاث مئة درهم، وحدثت جارته أم سعيد عنه فقالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، وربما ترنم في السحر بالقرآن فأرى أن جميع النعيم قد جمع في ترنمه، قيل: إن داود صحب حبيباً العجمي وليس يصح، ولا علمنا داود سار إلى البصرة، ولا قدم حبيب الكوفة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٧/ ٤٢٢ وما بعدها.

(٢) الفضيل بن عياض: هو أبو علي الفُضَيل بن عِياض بن مسعود بن بشر الخراساني، توفي ١٨٧هـ، عاش نحو ثمانين سنة، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، كان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد، ارتحل في طلب العلم، وكان في أول أمره شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، =

معروف بن فيروز الكَرْخي[1] ت ٢٠١، وبِشْــر بن الحارث الحافي[2] ت ٢٢٧، وأبو محمد سهل بن عبد الله التُسْتَري[3] ت ٢٨٣، ....

= فرجع وجعل توبته مجاورة البيت الحرام، روي عن ابن المبارك قال: ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض، وقال: إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه، وقال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وعمله وأخذِه وعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره... من أقوال الفضيل: رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة، من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته، وكان يعيش من صِلَة ابن المبارك ونحوه من أهل الخير ويمتنع من جوائز الملوك. انظر: سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٢١ وما بعدها.

(١) معروف الكرخي: هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكَرْخي البغدادي، ت٢٠١هـ، عَلَم الزهاد، ذكر السلمي أنه صحب داود الطائي ولم يصح، ذُكر معروف عند الإمام أحمد فقيل قصير العلم، فقال: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف، وسماه سفيان بن عيينة حبر بغداد، من أقوال معروف: إذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل، وقال: كيف تتقي وأنت لا تدري ما تتقي، وقيل: اغتاب رجل عند معروف فقال: اذكر القطن إذا وضع على عينيك، انظر: سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣٣٩ وما بعدها.

(٢) بشر بن الحارث: هو أبو نصر بِشْر بن الحارث الحافي المَرْوَزي ثم البغدادي، ١٥٢ - ٢٢٧هـ، الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الاسلام، ارتحل في العلم، فأخذ عن: مالك، وشريك، وحماد بن زيد، وفضيل بن عياض، وابن المبارك، وغيرهم، روي عن بشر أنه قيل له: ألا تُحَدِّث [أي ألا تتكلم]؟ قال: أنا أشتهي أن أحدث، وإذا اشتهيت شيئاً تركته، ومن أقواله: الجوع يصفي الفؤاد، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق، وقال: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سداً، وقال: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها؛ أحب لقاء مولاه، قال الدارقطني عنه: زاهد جبل ثقة، ليس يروي إلا حديثاً صحيحاً. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٤٦٩ وما بعدها.

(٣) سهل بن عبد الله التُستَري: هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التُسْتَري، ت٢٨٣هـ، =

وأبو القاسم الجُنَيد البغدادي[1] ت٢٩٧، وغيرهم كثير.

كيفية التعامل مع كتب التزكية:

لقد كان للعلماء والشيوخ والمربين الذين تخصصوا في علم التزكية شأنُهم وتجاربهم وخبرتهم، التي أَثْرَت هذا العلم، وفتحت أبواباً في فهم النفوس والتعامل معها وتربيتها، فلا بد لمن يعتني بهذا العلم وهذا الفن أن يستفيد من ميراثهم وتجاربهم وكتبهم، فإن ذلك يختصر الطريق كثيراً.

ولا ينبغي أن نأخذ هذا العلم ولا غيره من العلوم إلا عن الموثوقين من العلماء الصالحين، الذي شهدت لهم الأمة بالصلاح والهداية، مع تجنب هفواتهم وأخطائهم، وما ينقل من انحرافات عن أتباعهم.

= شيخ العارفين، صحب خاله محمد بن سوار، ولقي في الحج ذا النون المصري وصحبه، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة وقدم راسخ في الطريق، روى أبو زرعة الطبري عن ابن درستويه صاحب سهل قال: قال سهل ـ ورأى أصحابَ الحديث ـ فقال: اجهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر، ومن أقوال سهل: من أراد الدنيا والآخرة فليكتب الحديث فإن فيه منفعة الدنيا والآخرة، ومن كلام سهل: لا مُعين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه، وقال: أصولنا ستة: التمسك بالقرآن، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، والتوبة، وأداء الحقوق. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٣٣٠ وما بعدها.

(١) الجُنَيد: هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومئتين وتوفي سنة ٢٩٧هـ، تفقه على الإمام أبي ثور، وكان يفتي على مذهبه، وسمع من السري السقطي والحسن بن عرفة والحارث المحاسبي، أتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتعبَّد ونطق بالحكمة، لم يُرَ في زمانه مثلُه في عفةٍ وعزوفٍ عن الدنيا، قيل: إنه كان في سوقه [أي في عمله] ووِرْدُه كل يوم ثلاثُ مئة ركعة وكذا ألفُ تسبيحة، من أقواله: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٦٦-٧٠.

فقد أخطأ بعضُ من كَتَبَ في هذا العلم في بعض الأمور، اجتهاداً منهم، أو تأثراً ببيئة، أو لضعف عند الواحد منهم في بعض العلوم، أو لغير ذلك من الأسباب.

وما دام الواحد منهم يُقِرُّ بالرجوع إلى الكتاب والسنة ويَنطلِق منهما، فَهُم معذورون عند الله، ومن واجبنا أن ننتقد ما ظهر من الخطأ بكل أدب واحترام، فلا يكاد أحد يسلم من الخطأ، وليس العَجَب أن يخطئوا أو أن نخطئ، وإنما العجب ممن يفترض أن لا يخطئوا، وهم غير معصومين، وإذا كانوا معذورين عند الله فمن واجبنا أن نحترمهم، لا سيما وقد شهد لهم الناس بالصلاح والفضل.

والكتب التي ألفت في علم التزكية كثيرة جداً، ولكن لا يخلو بعضها أو كثير منها من عبارات غير مقبولة شرعاً، أو قصص مستنكرة، أو أحاديث ضعيفة أو موضوعة، ومن واجبنا أن نتجنب هذه الأمور، ونستفيد مما هو مفيد في تلك الكتب.

ومن الكتب المعاصرة التي سهلت علم التزكية، وحرصت على البعد عن الانحرافات والأحاديث الضعيفة والقصص المنكرة والشطحات والزندقة: كتاب «**المستخلص في تزكية الأنفس**» لوالدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله، و «**مذكرات في منازل الصديقين والربانيين**»، له أيضاً، وكتاب «**أصول الوصول إلى الله تعالى**» للشيخ محمد حسين يعقوب، وكثير من كُتيبات مجدي الهلالي.

تاسعاً: تسميات ومصطلحات تطلق على علم التزكية:

يطلق كثير من العلماء على علم التزكية تسميات أخرى فيسمونه: علم الإحسان أو علم الأخلاق والآداب أو فقه الباطن أو علم السلوك أو علم الطريق أو علم التصوف أو علم الحقيقة أو علم الطريقة.

فلا بد من بيان ما يقصد بهذه المفردات وما هي صلتها بعلم التزكية:

ـ أما **الإحسان** فهو غاية من غايات التزكية وهدف من أهدافها ورتبة عالية من مراتبها، لكن إذا بذل الإنسان أو المسلم جهداً زكى به نفسه شيئاً ما فازداد قرباً أو ازداد عملاً أو حسّن خلقه، أو ترك معصية، أو طهَّر قلبه من بعض أمراضه؛ فإنه يعدُّ مزكياً لنفسه بقدر ما اجتهد، وإن لم يبلغ رتبة الإحسان، فالتزكية تشمل الإحسان وغيره.

ـ **والأخلاق والآداب** الظاهرة والباطنة هي جزء من التزكية، فمِن التزكية: التطهُّر من الأخلاق الرذيلة، والحرصُ على الأخلاق الحسنة الرفيعة، ولكن التزكية تشمل غير ذلك مما له علاقة بالإيمان وبالعبادات وغير ذلك.

ـ وفقه **الباطن** الذي يشمل النيات وإصلاحها، ويشمل تطهير الفكر والقلب من الأمراض الباطنة كالرياء والحقد والغرور والحسد وغيرها، هو أيضاً جزء من أهم موضوعات التزكية، لكنه ليس هو كلَّ التزكية، وفقه الباطن وصلاحه أساس عظيم مهم في التزكية لقول النبي ﷺ ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]، فيمكن أن تعتبر موضوعات التزكية جميعاً من فقه الباطن، من جهة أن ما يظهر على الإنسان لا قيمة له ولا صلاح فيه ولا تزكية به؛ إلا إذا رافقه حال قلبي صحيح، فالحالة الباطنة هي التي عليها مدار التزكية، ولكن هذا لا يعني أنه يجوز أن يكتفى بإصلاح الباطن، بل لا بد أن يعمل في ظاهره ما يتوافق مع الباطن السليم، ما دام قادراً على العمل به، وعندئذ تكتمل التزكية.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩.

ـ و**علم السلوك** يدخل فيه وسائل التزكية والمسالك الشرعية المتبعة للوصول إلى التزكية، لكنه لا يشمل ثمراتها ومعارفها والمقامات التي يتوصل إليها كأثر عنه، فعلم السلوك يشكل الجانب العملي في تحصيل التزكية، لكنه لا يستوعب كل جوانب التزكية.

ـ و**علم الطريق** فهو بمعنى علم السلوك، لا يشمل كل جوانب التزكية، وإنما جاز تسمية التزكية بها لأن الله تعالى سمى دينه طريقاً بقوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، فالجنة لها طريقها، والنار لها طريقها.

ـ أما **علم التصوف** فهو يشمل معاني التزكية، وقد صار مصطلحاً جرى عليه كثير من الناس منذ القرن الثاني أو الثالث يطلقونه على التزكية، إلا أنه ـ كسائر العلوم ـ اختلط فيه الحق والباطل، فما كان منه حقاً موافقاً للكتاب والسنة ومستنبَطاً منهما فهو تزكية، وما كان خارجاً عنهما أو مخالفاً لهما فليس هو من التزكية، بل ينبغي التزكية منه والتطهر منه والتخلص منه.

ولا تهمنا التسميات والمصطلحات المستحدثة(١)، وإنما العبرة بالمضمون، فإطلاق كلمة التصوف على علم التزكية هو أمر مستحدث بعد النبي ﷺ، فالنبي ﷺ لم يُسَمِّ التزكية تصوفاً، كما أن إطلاق كلمة العقيدة على الإيمان أمر مستحدث، فالنبي ﷺ لم يُسَمِّ الإيمان عقيدة، وإنما هي مصطلحات جرى عليها الناس، فالمعاني الصحيحة والمضمون الذي يوافق الحق نأخذه، والمضمون الباطل نرفضه، وكما وجد في العقيدة عقائد باطلة لا تجعلنا نترك العقيدة

---

(١) إنما تهمنا التسميات والمصطلحات الشرعية، فيجب المحافظة عليها، كما في نهي النبي ﷺ عن تسمية صلاة العشاء أو المغرب بالعتمة، فيما أخرجه البخاري ومسلم.

الصحيحة بسبب وجود الباطلة، كذلك لا ينبغي أن نترك الحق من التزكية الذي يوافق الكتاب والسنة إذا سمي تصوفاً؛ بسبب وجود تصوف باطل ومنحرف.

وقد تجد مصطلح التصوف محموداً في بعض البلاد وعند بعض الناس، ومذموماً عند آخرين، وناس يرونه مختصاً بإصلاح القلوب، وناس يرونه مرتبطاً بالعزلة والزهد في الدنيا والإكثار من ذكر الله، وناس يرونه علامة على البعد عن السياسة، ولا يهمنا ذلك كله، إنما يهمنا من هذا العلم وكتبه ما ينفع مما يرجع إلى الكتاب والسنة الصحيحة.

ـ أما **علم الحقيقة** فهو من ثمرات علم التزكية، فهو بعض علم التزكية، ومضمون علم الحقيقة أن يلتفت الإنسان إلى الحقِّ سبحانه في كل أمر؛ يلتفت إلى أن الله هو المتصرف في هذا الكون والخلق، وأنه ينبغي أن تكون حياتُك كلُّها عبودية لله، وفق أحكام الله، وأنه لا يجري شيء إلا بعلم الله ومشيئته وقدرته ومدده، فكلما نظر إلى شيء ذكَّره بالله، لأنه لا يرى شيئاً وإلا وهو من فعل الله، فمضمون هذا العلم التعرف على صفات الله وأفعاله في الكون والخلق.

وتسمية هذا العلم بعلم الحقيقة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، ومن قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لَبِيْد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٦٢٨ ومسلم رقم ٢٢٥٦ عن أبي هريرة ﷺ، و(لبيد): هو ابن ربيعة، كان من شعراء الجاهلية، ثم أسلم ﷺ حين وَفَد قومه بنو جعفر إلى رسول الله ﷺ.

وليس معنى الحديث أنه يعتبر الكون باطلاً وما فيه من خلق وناس وأنبياء باطلاً، وإنما معناه: لو أن أي شيء لم يستمد من الله لما كان له وجود، ولما كان له أثر، ولما اهتدى إلى الحق، فلا يكون شيء حقاً إلا بمدد الله، كما لا تكون الأعمال التي نعملها حقاً إلا إذا وافقت مراد الله وأمره، وهذا المقصود بعلم الحقيقة.

وقد دخل بعض الناس باسم علم الحقيقة إلى الانحراف والزندقة، فنسبوا إلى الإيمان ما ظاهره الكفر، وقالوا كلماتٍ ظاهرُها الكفر، يَدَّعُون أن معناها صحيح، وتكلموا على طريقة فِرَقِ الباطنية[1]، وكان لهذا أثره السيء في علم التزكية.

ـ أما **علم المعرفة**، معرفة الله، فهو شبيه بمعنى علم الحقيقة، وهو بعض علم التزكية.

وقد أُخِذت تسميته من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] ومن قول النبي ﷺ: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[2]، ويستدلون له بحديث آخرَ ضعيفِ الإسناد: «**عرفت فالزم**»[3]، ويسمى صاحب

(١) هي فِرَقٌ انتسبت إلى الإسلام، وقد خرجت منه، يجعلون ظواهر النصوص على غير معناها، ويدَّعون أن للنصوص الشرعية باطناً غير ظاهرها، وأن هذا الباطن هو المقصود، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلغون معاني النصوص الظاهرة الواضحة.

(٢) جزء من حديث، أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٨٠٤ والحاكم في المستدرك رقم ٦٣٠٣.

(٣) أخرجه البزار والطبراني، انظر مجمع الزوائد ج١، ص٥٧، وفيه ضعف، وأخرجه ابن المبارك في الزهد رقم ٣١٤، والطبراني في المعجم الكبير ٣٣٦٧، والبيهقي في كتاب الزهد الكبير رقم ٩٧٣ وفي شعب الإيمان رقم ١٠٥٩٠، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٣٠٤٢٣ ورقم ٣٠٤٢٥، وأخرجه معمر بن راشد في الجامع ج١١ ص١٢٩، وعبد بن حميد في مسنده رقم ٤٤٥، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ج٤ ص٤٥٥ رقم ٢٠٨٥، =

هذا العلم عارفاً، وتسميته بالعالم أولى، فتوحيد الله ومعرفته علم: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وذكر اللهُ في كتابه الخبيرَ، وهو أبلغ في المعرفة والعلم من العارف والعالم، فقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا (١)﴾ [الفرقان: ٥٩]، والخبرة تتضمن المعرفة والعلم وزيادة، فالعالم بالشيء قد لا يكون خبيراً به، وإنما يسمى خبيراً إذا تعامل معه مرات حتى عرف كل تفصيلاته وشؤونه، والعارف يكون خبيراً بالله حينما يكون ملتفتاً إلى أسمائه وأفعاله في خلقه كثيراً، حتى لا يكاد ينظر في شيء من الكون إلا ويجد في فكره ونظره ما يذكِّره بالله وبصفات الله.

ـ أما **علم الطريقة** فيستعمل أحياناً بمعنى الطريق الذي سبق ذكره، ويستعمل بمعنى آخر، وهو الإشارة إلى طرق الصالحين والمربين في تزكية النفوس، فقد اشتهر بعض الصالحين في علم التزكية وفي تربية الناس، كما اشتهر علماءُ مجتهدون أئمةٌ في علم الفقه أو علم العقيدة أو علم الحديث، أو غيرها من العلوم.

= قال ابن رجب عن هذا الحديث في جامع العلوم والحكم ص٣٦: «وقد روي من وجوه مرسلة وروي متصلاً والمرسل أصح». والحديث بتمامه: أن النبي ﷺ قال: «كيف أصبحت ياحارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول؟ فإن لكل حق حقيقة»، قال: عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا، فأظمأتُ نهاري، وأسهرتُ ليلي، أصبحت كأني أنظرُ إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها، فقال: «عبدٌ نَوَّرَ الله قلبَه، عَرفتَ فَالْزَمْ». ولم أقف له على إسناد صحيح.

(١) وهذا على قول من قال إن تفسير الآية: الرحمن فاسأل عنه خبيراً به، أو على قول من قال إن تفسير الآية: الرحمن فاسْأَلْه وأنت به خبير عالم بصفاته وأسمائه، وللآية تفاسير أخرى، منها: اِسأَلِ اللهَ الرحمنَ فهو خبير بخلقه وبما تسأله عنه. انظر: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٦٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٤، وبين أن الخبير بالله الذي يُسأل عنه هو النبي ﷺ، فلا أخبر منه بالله، واقتصر الطبري على التأويل الأخير، انظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٨.

فنسبت التزكية إليهم فقيل مثلاً: طريقة الجنيد، وطريقة الرفاعي، وطريقة الجيلاني، وطريقة الغزالي، وطريقة الشاذلي، وطريقة النقشبندي، وغيرهم كثير.

والأصل في هذه الطرق أن تكون راجعة إلى الكتاب والسنة، كرجوع الفقهاء مثلاً إلى الكتاب والسنة، وإن اختلفت اجتهاداتهم وبعض أصولهم، وغالب هذه الطرق راجع إلى الكتاب والسنة، لكنها لا تخلو من أخطاء في العلم والعمل، كأخطاء علماء الفقه في فقههم، وربما كان أكثر الانحراف الذي دخل هذه الطرق هو من الأتباع لا من المشايخ الذين نسبت إليهم[1].

وما أخطأ به الأئمة الصادقون من أخذٍ بحديث ضعيف، أو اجتهاد خاطئ في مسألة، فعساهم أن يكونوا معذورين فيه عند الله.

وإنما تَبع الناس أصحاب الطرق لِمَا عُرِف عنهم من منهج في التربية وقدرة على تزكية المريدين، ولما غلب على الظن من صلاحهم، مع ظهور قبولهم عند كثير من الخلق.

وقد يكون بعض من نُسبت إليهم الطرق منحرفين، لكن ظنَّهم الناس على خير، وإنما يحكم الناس بحسب ظنهم، والحكم لله أولاً وآخراً، وواجبنا إذا وجدنا شيئاً من تراثهم وطريقتهم أن نَرُدَّ ذلك إلى الكتاب والسنة، فما كان منهما أو لم يخالفهما قبلناه، وانتفعنا منه، وما ظهر لنا خطؤه ومخالفته رددناه، فالطريقة التي تعبَّدَنا الله بها طريقةُ رسول الله ﷺ، وهو ﷺ الذي يتشرف بالانتساب إليه أصحابُ الطرق وغيرُهم.

(١) فأنت تجد ـ مثلًا ـ الإمام الرفاعي في كتابه: «البرهان المؤيد»، ينكر الشطحات والقولَ بالوحدة المطلقة إنكاراً شديداً، ويعتبرها ثلمة في الدين، وتجده ينكر البدع ويحذِّر منها، وينكر دعاوى الشيوخ وترفعهم على تلامذتهم، ويحث على التواضع والعبودية والاتباع والأخذ بالسنة، بينما تجد كثيراً من المنتسبين إلى طريقته قد وقعوا فيما أنكره وحذر منه.

وقد دخل في كثير من الطرق بدع وانحرافات ونقص وزيادات؛ فواجبنا أن نصلحها ونردها إلى صوابها.

وإنما تعددت الطرق مع أن الدين واحد وسنة النبي ﷺ واحدة؛ لاختلاف السُّبُل والطرائق في تربية النفوس، وخاصة في بداية السير إلى الله، وإلا فنتائج السير واحدة في الاستقامة وحُسنِ الأحوال، فمن أصحاب الطرق من يهتم ـ في بداية السير ـ بالمعارف والعقائد ويرسخها في النفوس لتنشِئَ سيراً صحيحاً ورغبة قلبية سليمة، ومنهم من يهتم بالآداب الظاهرة والباطنة، ومنهم من يهتم بمجاهدات النفس ومخالفة أهوائها، ومنهم من يهتم بالذكر، ومنهم من يهتم بترك المعاصي والتحذير منها، ومنهم من يُذكِّر بالآخرة ويحبب الجنة ويخوف من النار، ومنهم من يهتم بالعلم الشرعي بتعليم العقيدة والفقه في أول السير، ومنهم من يعطي القلب اهتماماً، ومنهم من يعطي الظاهر اهتماماً في البداية، وهكذا.

كما تختلف الطرق بحسب ترتيب الأوراد، فيما وراء الفرائض والرواتب، فما نَدب إليه الشرع الشريف من غير أن يربطه بوقت معين؛ فقد جعل بعض أصحاب الطرق لتلاميذهم حداً معيناً أو عدداً معيناً يلازمونه ويتخذونه وِرْداً لا يتركونه، ليكون مع الفرائض والسنن الرواتب سبيلاً للتقرب إلى الله، وسيأتي الكلام عن حكم ذلك، ومتى يكون جائزاً، ومتى يكون بدعة، في موضعه إن شاء الله.

عاشراً: علاقة علم التزكية بعلم النفس وعلم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية[1]:

(١) يعرَّف علم النفس بأنه دراسة الظاهرات النفسية أياً كانت، ويلاحظ علم النفس السلوكيات الإنسانية، داخلية وخارجية، كما يبحث في الدوافع الداخلية أو الخارجية لهذه السلوكيات.
ويعرَّف علم الطاقة: بأنه العلم الذي يلاحظ الذبذبات المتواجدة في كل ذرات الكون، وكيفية الاستفادة منها بأخذ القوة منها. =

من العلوم المعاصرة ذات العلاقة بعلم التزكية: **علم النفس**، ولكن علم النفس الذي يُدَرَّس في عصرنا أكثره من نتاج أفكار الكافرين، وهو يتعامل مع النفس الإنسانية في الغالب وكأنها آلة، دون النظر إلى سنن الله في الإنسان التي عَرَّفَنا عليها الوحي، ودون النظر إلى علاقة هذه النفس بخالقها وما يقدِّره عليها من إحسان أو عقوبة أو ابتلاء أو اختلال نفسي، نتيجة طاعتها أو مخالفتها.

وما من خير وصل إليه البشر في هذا العلم إلا وهو موجود في ديننا، وعندنا زيادة عنه.

والله تعالى قد حدد للإنسان طبيعة علاقته مع الموجودات كلها، فعلاقة الإنسان بالخالق علاقة عبادة لا علاقة تجاهل وكفران، وعلاقة الإنسان بالإنسان علاقة تعاون وأخلاق وعدل لا علاقة ظلم واستغلال وقهر، وعلاقة الإنسان بالكون علاقة تسخير لا علاقة عداء وصراع(١).

والنفس إذا لم تدرك تلك العلاقات وإذا لم تنطلق بناءً عليها؛ فإنها تسير في اتجاه معاكس لفطرتها ولِما ينفعها في دنياها وآخرتها، وعلم النفس الذي يبنى بعيداً عن هذه الأسس فإنه سيكون ناقصاً وفاشلاً(٢).

= وأما البرمجة اللغوية العصبية (Neuro Linguistic Programming) (nlp) فتعريفها: بأنها العلم الذي يجيب على سؤالين: ماذا تريد، وكيف تصل إلى ما تريد، وعرفت بأنها: الهندسة النفسية أو هندسة الأعصاب لغوياً، وعرفت بأنها: دراسة تنظيمية للسلوك البشري والتعامل معه والتأثير فيه.

(١) انظر كتاب: **فلسفة التربية الإسلامية**، دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية المعاصرة، تأليف الأستاذ الدكتور: ماجد عرسان الكيلاني، دار الفتح، عمان، ط ١، ٢٠٠٩م، انظر ص٩٩ فما بعدها.

(٢) ولا يمنع هذا من أن نطلع على ما توصل إليه علم النفس عند الآخرين، كما لا يمنع أن نستفيد من بعض ملاحظاتهم عن النفس ونتائجها؛ ما لم تكن مخالفة لدين الله وشرعه.

ومن العلوم المعاصرة الحديثة المتعلقة بعلم النفس: **علم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية**، وهو يلتقي مع علم التزكية، من جهة أن علم الطاقة والبرمجة يهتم بما يُعطي الإنسان همة ونشاطاً وتأثُّراً وتأثيراً، وهذا الأمر هو محل اهتمام كبير في علم التزكية، وعلم التزكية أوسع من علم الطاقة من حيث أنه يَبْحث عن الطاقة الدنيوية والأخروية، ويَستدل من خلال الوحي على الأمور التي تحتوي على الطاقة والتأثير الحقيقي، فمصدر العلم الصحيح في هذا العلم هو أن تؤخذ من عالِمِ الأشياء وخالقِها، وواضع التأثير فيها.

ويتوافق علم البرمجة اللغوية العصبية مع علم التزكية من حيث اشتراكهما بعدد من العناوين، وإن اختلفت المضمونات والمسائل وطريقة الطرح العلمي لها؛ كترتيب أمور النفس البشرية وتنظيم تفكيرها ورغباتها وشهواتها وقراراتها وأعمالها وأقوالها.

وكثير من النتائج العلمية الصحيحة التي توصل إليها العلماء في علم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية؛ هي مقررة أصلاً في ديننا وأدلتِه ونصوصِه، بل هي موجودة في شريعتنا على وجه أدق وأعمق مما توصل إليه أهل هذا العلم، ونجد كثيراً من تلك النتائج مثبتةً في كتب التزكية لعلمائنا السابقين.

وقد حاول بعض المسلمين الذين درَسوا هذا العلم وأتقنوه أن يُدخلوا المضمونات الدينية على هذا العلم، وقد نجحوا في كثير من الجوانب، وتحتاج إلى استكمال وتنبيهٍ على بعض الحقائق الشرعية المهمة المتعلقة بهذا العلم، كالتنبيه إلى أن الطاقة لا ترجع إلى النفس وأعمالها وأقوالها، وإن صدرت عنها، وإنما هي راجعة إلى خالق النفس ومالكها، وقد تصح نسبة الطاقة إلى النفس في بعض الحالات من باب نسبة الشيء إلى سببه الظاهر، لكن لا بد أن يكون معها علم ويقين أن الأسباب لا تؤثر بذاتها، وإنما هي قائمة وموجودة ومؤثرة بقدرة الله ومدده، ومتوقفة على مشيئته.

المقدمة الرابعة

المنهج العلمي والأساس الشرعي لهذا الكتاب

المقدمة الرابعة

المنهج العلمي والأساس الشرعي لهذا الكتاب

منهج هذا الكتاب:

المنهج والطريق الذي أرتضيه في علم التزكية، وهو منهجي في هذا الكتاب:

ـ الرجوع في جميع مسائل التزكية ـ صغيرها وكبيرها ـ إلى أدلة الشرع، والحرص على الدليل الصحيح، فإن مرجع المسلم في معرفة دينِه القرآنُ الكريم والسنةُ الثابتةُ عن رسول الله ﷺ، والتزكية جزء من الدين فهي مما شرعه الله لنا وأمرنا أن نكون عليه، أوجبه علينا أو ندبنا إليه.

والمسلم العاقل الصادق لا يقبل أن يأخذ التزكية ولا غيرها إلا من الأدلة الصحيحة المقبولة.

هذه التزكية هي التي ندعو أنفسنا وغيرنا إليها، وهي التي تنشرح لها صدورنا وتطمئن بها قلوبنا، فنرغب بها ولا نتردد في السير فيها والأخذ عن أهلها.

ـ ترك الحديث الضعيف والموضوع، وعدم الاستدلال بهما، وفي هذا الكتاب قد أذكر حديثاً مختلَفاً في تصحيحه بين العلماء، إذا رجحت صحته أو حسنه، وأشير إلى ذلك غالباً، وغالباً ما أذكر معه من الأدلة ما يدل على صحة معناه.

إنك إذا قرأت كثيراً من كتب التزكية تجدها تعتمد في كثير من المسائل على أحاديث ضعيفة وموضوعة، وهذا خطأ جسيم أدخل علينا بِدَعاً، وشَغَلَنا

بأشياء لا تصح عن الأشياء الثابتة التي ينبغي أن نزكي أنفسنا بها، وقد كان وجود الأحاديث المردودة في كتب التزكية سبباً في نفور كثير من المسلمين والعلماء من هذا العلم على أهميته.

ولم يكن مراد أولئك العلماء الذين استدلوا بالأحاديث المردودة أن ينسبوا إلى النبي ﷺ ما ليس ثابتاً عنه، ولا قصدوا أن يبنوا أحكاماً بالظن والشك، ولا أن يبتدعوا، ولكن ضَعْفُ علمهم في الحديث، وتهاون أكثر الناس في زمانهم في هذا الأمر؛ كان له أثره السلبي في ذلك، فبعضهم كان يرجع إلى كتب الحديث كمسند أحمد وجامع الترمذي وسنن أبي داود ومعجم الطبراني الكبير وغيرها، ويعتمد على مصادر السنة التي بين يديه، مع عدم قدرته على التمييز بين الصحيح والضعيف من الحديث، فيستدل بأحاديث ضعيفة، وبأحاديث موضوعة أحياناً، وقد يكون ذلك لظن بعضهم أن أئمة علم الحديث لم يثبتوها إلا وأنها مقبولة صالحة للاستدلال بها، والمعلوم أن أكثر المحدثين لم يلتزم بالأحاديث الصحيحة وحدها، بل كانوا يذكرون الضعيف عسى أن يوجد له من الشواهد ما يقويه، فيُستدل به عندئذ.

ـ الرجوع في المسائل الخلافية إلى الأصول الصحيحة وإلى فهم السلف وفقه الأئمة المجتهدين، مع التزام ما هو أقرب إلى الأدلة وأقوى في الدلالة، من غير أن أخوض في النقاش والأقوال والأدلة والتعارض بينها وترجيح العلماء فيها، وإنما كنت أكتفي بإثبات ما يترجح لدي أنه الحق مع دليله.

ولا أُعَرِّض بأحد خالف في مسألة، لكني قد أنبه على المخالفات في بعض المسائل تحذيراً من الوقوع فيها.

ولا بد من التنبيه إلى أن الأحكام التي ترجع إلى الكتاب والسنة منها ما اختلف فيه العلماء والفقهاء؛ وهو مما جاز أن يجتهد فيه العلماء، وهم معذورون

في الاختلاف فيه، ما دام كل فريق ينطلق من الكتاب والسنة، وما دامت المسألة مما يُحْتَمَل الاختلاف فيه، فإن بعض مسائل هذا العلم قد يختلف فيها أهل التربية والتزكية، كاختلاف الفقهاء في مسائل الفقه فيما بينهم، وينبغي أن يَعذُر المختلفون بعضَهم في مثل هذه المسائل، ما دامت لا تصل إلى الشذوذ والانحراف، كما ينبغي احترام اجتهاداتهم المختلفة، وعدم التشنيع عليهم، أو التفسيق والتبديع لهم.

ـ حرصت على الاهتمام بما يمثل موضوعات التزكية الحقيقية شرعاً، من وسائل علمية وقولية وعملية ومن ثمرات، وغير ذلك، مع إعطائها حجمها الحقيقي في دين الله، بحيث يكون الاهتمام بالأهم أكثر من المهم، وبحيث لا نجعل بعض الأمور الشكلية أو المباحة وكأنها واجبات، أو طقوساً، أو شعائر لا يجوز تركها.

وكثيراً ما وُجد في كتب التزكية عباراتٌ منكرة شرعاً، أو غير مفهومة، وقصصٌ منكرة مكذوبة على الصالحين، وهذا كان له أثره السيء، فقد سَبَّبَ إشكالاتٍ ونَفَّر من علم التزكية وكتبه، ومن واجبنا ـ الذي مشينا عليه في هذا الكتاب ـ أن نتجنب ما ينكره شرع الله الشريف، وأن نتجنب رواية قصص وحكايات لا تُقبل شرعاً ولا عقلاً، وأن نقتصر من ذلك على ما ثبت ونقل بإسناد صحيح، مما فيه عبرة تزيد التزكية وتنمِّيها.

وبعض المسلمين يَعْرِف معنى التزكية وأهميتها؛ لكنه يجد ما ينكره في كتب التزكية أو يجد في بعض من ينتسب إلى التزكية صفة مذمومة، فيكره التزكية لأجل ذلك، وواجبه أن يدرك أن التزكية ليس فيها إلا الخير، وأن تلك المنكرات والصفات المذمومة ليست من التزكية، فليس له حجة عند الله في الإعراض عن التزكية.

ـ حرصت على بيان الضوابط والقواعد التي تزيل الإشكال في كثير من أمور التزكية[1]، كضوابط مجاهدة النفس وحدودها، وقواعد العزلة عن الناس أو الخلطة معهم، وضوابط التعامل مع الكرامة، ومتى يكون الزهد شرعياً، ومتى يكون إهمالاً وتقصيراً، وكيف نجمع بين إصلاح النفس وإصلاح المجتمع، وكيف نجمع بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين عدم العجب والغرور والرياء، وكيف يكون الجهاد جزءً من تزكية النفس، وأنه لا يتعارض معها، وبيان قيمة المنامات وضوابط التعامل معها، وكيفية التعامل مع الغيبيات، والتوافق بين الظاهر والباطن في الشريعة، وغير ذلك.

وهذه الضوابط سواء كانت فكرية أو فقهية أو تزكوية، علمية أو عملية، فهي تعين التلاميذ على معرفة صحة سيرهم، ويكتشفون بها صحة منهج شيوخهم، وهي تذكير للشيوخ بما ينبغي أن يغرسوه ويعلموه لطلابهم ويحثوهم على العمل به ووفق ضوابطه، حتى لا ينحرفوا عن الطريق.

ـ حرصت على أن أُثْبِتَ في الكتاب ما يجتمع عليه أهل الإسلام، وابتعدت عما يمكن أن يسبب خلافاً أو فرقة.

ـ وقد حرصت مع موافقة نصوص الشريعة في مسائل التزكية أن أبين ـ في مواضع كثيرة ـ أنها موافقة للعقل السليم، منطقية في حسنها وتأثيرها في التزكية.

ـ وقد حرصت على بيان أقرب الطرق وأسرع الوسائل في تزكية النفس.

ـ إن المواعظ والرقائق جزءٌ مهم في علم تزكية النفس، وهي وسيلة مهمة مؤثرة في إيجاد التزكية في النفس وعند الآخرين، وقد أُلِّفَت في هذا الجانب كتب

(١) وتفصيل بعض هذه الأمور قد لا يجده القارئ في المرحلة الأولى، وإنما في المراحل التالية.

كثيرة[1]، يحسن الاستفادة منها، وينبغي على مدرسي التزكية أن يستفيدوا منها ومن أساليبها.

مع وجوب الاقتصار على النصوص الصحيحة وما استنبط منها في المواعظ، فإن بعض هذه الكتب قد تضمن أحاديث ضعيفة وقصصاً منكرة، ينبغي أن يتجاوزها القارئ، ويتجنبَ الواعظُ ذِكرَها.

تقسيم التزكية إلى مراحل:

ـ ولما كان الإنسان وهو يزكي نفسه يمر بمراحل، فقد جعلت تقسيم هذا الكتاب وموضوعاته على مراحل، لتعين الطالب على التدرج والترقي في طريق التزكية، فيكون الكتاب عملياً، وليس تعليمياً فحسب.

وعادة علماء التزكية أن يتكلموا عن موضوعات التزكية موضوعاً موضوعاً، بغض النظر عن كون الإنسان يحتاجها في بداية تزكيته أو توسطه أو نهايته، فكان هذا الكتاب تجديداً في علم التزكية من هذا الجانب[2].

وليس هذا من البدعة، فإن كل العلوم قد عرفت مثل هذه التقسيم، فمن العلوم ومن الأعمال ما تناسب المبتدئين، ومنها ما يناسب المتوسطين، ومنها ما يناسب المتحققين العالِين المُتْقِنين.

والدليل الشرعي لهذا التقسيم في التزكية في قول الله تعالى:

---

(١) منها كتاب الإمام أحمد: الزهد، وكتاب الحريفيش: الروض الفائق في المواعظ والرقائق، وكتاب ابن رجب الحنبلي: الرقة والبكاء، وكتاب عدنان سعد الدين: في التزكية والسلوك، وغيرها كثير.

(٢) وصاحب هذه الفكرة الذي اقترح عليَّ أن أجعل الكتاب مقسمًا بحسب المراحل؛ هو شيخنا الشيخ عبد المجيد الزنداني حفظه الله وأكرمه.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

فقد بينت الآية أن التقوى درجات، فقرنها أولاً بالعمل الصالح وهو رتبة الإسلام، وأشار باستعمال لفظ ﴿ ثم ﴾ إلى أنه يرتقي إلى درجة أخرى بعدها، وقرن التقوى في الدرجة الثانية بالإيمان، ثم قرنها في الدرجة الثالثة بالإحسان(١)، ثم حثنا لننهض بهممنا إلى طلب رتبة التقوى مع الإحسان؛ إذ بين أنه يحب المحسنين، وهو يحب المسلمين والمؤمنين أيضاً، لكنه ذَكَر حُبَّه للمحسنين، ليُذكِّرنا أنهم أحب إليه، لنطلب هذه الرتبة الأعلى، ولا نرضى بالدون.

ـ وقد اجتهدت جهدي في بيان ما يتعلق من التزكية بكل مرحلة، وما ذكر في كل مرحلة ليس من الأمور الحَدِّيَّة التي لا تقبل الاختلاف أو التنوع، فقد

---

(١) قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج٦، ص٢٧٦، ذاكراً من مسائل هذه الآية: «[المسألة] السابعة: قوله تعالى: ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فيه أربعة أقوال: **الأول**: أنه ليس في ذكر التقوى تكرار، والمعنى اتقَوْا شربها [شرب الخمر] وآمنوا بتحريمها، والمعنى الثاني: دام اتقاؤهم وإيمانهم، والثالث: على معنى الإحسان إلى الاتقاء، **والثاني**: اتقوا قبل التحريم في غيرها من المحرمات، ثم اتقوا بعد تحريمها شربها، ثم اتقوا فيما بقي من أعمالهم وأحسنوا العمل، **الثالث**: اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله، والمعنى الثاني: ثم اتقوا الكبائر وازدادوا إيماناً، والمعنى الثالث: ثم اتقوا الصغائر وأحسنوا، أي تنفلوا، **وقال محمد بن جرير**: الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل، [المسألة] الثامنة: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دليل على أن المتقي المحسن أفضل من المتقي المؤمن الذي عمل الصالحات، فضله بأجر الإحسان». وقال محمد الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير من التفسير» ص١١٩٨: «وأما جملة ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ فتفيد تأكيداً لفظياً لجملة ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ ﴾، وتفيد الارتقاء في التقوى، بدلالة حرف (ثم) على التراخي الرتبي».

أثبتُّ ما عرفت من حال طلاب التزكية السائرين إلى رضوان ربهم، وما غلب على ظني أنه الأكثر في سيرهم في طريق التزكية، لكن من حيث الواقع قد توجد بعض الأعمال أو تظهر بعض الصفات والخصائص عند شخص ما في مرحلة غير المرحلة التي ذَكَرْتُ فيها تلك الأعمال أو الصفات، وقد يتحقق الطالب بمرحلة وبصفاتها وخصائصها لكن مع فوات صفة أو نقص خصيصة عنده.

فهذه المراحل تتناول الوضع الطبيعي في سير الطالب في التزكية، فيما اجتهدت وظننت، وإذا وُجِد عند الطالب وضع مخالف لما ذكر؛ فإنه يراعى وينتبه إليه، ويعالج إن كان نقصاً، ويستفاد منه إن كان خيراً، ومن شأن الشيخ المربي أن يراعي مثل ذلك.

وكل مرحلة تبدأ بوضع معين ويجب أن تنتهي بوضع آخر فيه قَدْرٌ ما من التزكية، وحتى يتحقق الطالب بمرحلة ما؛ فلا بد أن يدرك علومها ويقوم بأعمالها القلبية والظاهرة، وبقدر فهمه وحضور معلوماته في ذهنه وبقدر اجتهاده في العمل؛ بقدر ما يكون سيره أسرع وأَثْبتَ إن شاء الله، وذلك يحتاج في العادة إلى مدة زمنية، لكنها لا تقاس بالأيام والأشهر والسنوات، وإنما تعرف من خلال الثبات على الأعمال، وتعرف بحصول الثمرات والنتائج، والتحققِ بالصفات والخصائص، وكل ذلك يرجع إلى الصدق مع الله وقوة الإقبال عليه.

ـ وقد استعمل علماء التزكية تسميات كثيرة لهذه المراحل، ولكني اخترت منها تسمية رأيت أنها الأقرب إلى المعنى المطلوب، وأنها الأوضح والأكثر تعبيراً عن حقيقة الأمر، فاخترت تسميتها كما يأتي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة المبتدئين في طريق التزكية: مرحلة تزكية الطالبين،

وسميت بذلك لأن الإنسان لا يدخل في شيء ولا يسير فيه إلا بعد طلبه والرغبة فيه، والسائر في طريق التزكية في هذه المرحلة إنما يدخلها نتيجة

القناعة بأهمية التزكية، وهذه القناعة توجِد الرغبة في التزكية، فيندفع في طلبها والتعرف على أوصافها وأعمالها وما يوجدها، ثم يطلب تلك الأوصاف والأعمال ويسعى إليها ويجتهد في التحقق بها، وتتميز هذه المرحلة بوجود اليقظة والرغبة في الحق والخير عند صاحبها، مع اندفاعه نحو الاستقامة على أعمال الشريعة الظاهرة، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة: بمرحلة **تزكية المسلم**، لأنها تتضمن الحد الأدنى مما ينبغي أن يكون عليه المسلم العادي.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة المتوسطين في طريق التزكية: مرحلة السالكين، وسميت بذلك لأن ثبات السائر في طريق التزكية يجعله سالكاً في طريق يوصله إلى هدف ونتيجة وثمرة، وتتميز هذه المرحلة بالثبات على الأعمال الصالحة، والاهتمام بأعمال القلب وإصلاح أمراضه، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة **تزكية المؤمن**، لأن السالك فيها يكون مدار سيره واهتمامه التحقق بما يقتضيه إيمانه من أمور قلبية وأعمال ظاهرة.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة المتحققين في طريق التزكية: مرحلة الشيوخ، وسميت بذلك لأن السالك يكون قد تحقق بأوصاف التزكية في الجملة، فطهرت نفسه وترقَّت، ولم نسمها مرحلة المنتهي لأن طالب التزكية لا يقف سيره عند حد، ولا ينتهي، بل سَيْرُ الترقي مفتوح ومستمر حتى يموت ويلقى الله، وعلى صاحب هذه المرحلة إذا تحقق بأوصاف التزكية أن يثبت عليها، ويكون مجرد الثبات عنده ازدياد وترق له، فلا يزال سائراً بهذا الاعتبار، وتتميز هذه المرحلة بثبات القلب على أوصاف السلامة والطهارة والصلاح، مع استقامة الظاهر على أحسن حال، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة **تزكية المحسن**، لأن السالك فيها لا يكون

مطلبه مجرد التزكية، بل مطلبه في كل شيء أن يكون فيه على أحسن حال.

وفيما يلي خلاصة عن هذه المراحل الثلاثة وأهم ما تتميز به من جهة فكر العقل وحال القلب وعمل الجسد.

خلاصة في بيان الأعمال الرئيسية والخصائص الأساسية لكل مرحلة:

وهي ثلاثة أمور أساسية في كل مرحلة، يتعلق الأول منها بالعقل ومعارفه، والثاني بالقلب وأحواله، والثالث بالجسم وأعماله وسلوكه.

المرحلة الأولى: تزكية الطالبين:

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

١. الاقتناع العقلي بالحقائق الكبرى في الكون:

إن أهم الحقائق الموجودة في هذا الكون الذي نعيشه هي حقيقة وجود الخالق، ويتفرع عن هذه الحقيقة حقائق مهمة، وهي:

أن هذا الخالق لا بد أن تكون له صفات عظيمة، فلا يتصور أن يكون معه مثله يناقض مشيئته ويقابل قدرته، فهو الواحد، وله المشيئة الغالبة والقدرة التامة، ولا يتصور أن يكون محتاجاً لغيره، فهو قادر غني، ولا يتصور أن يكون جاهلاً بخلقه وملكه وفعله، فهو العليم الخبير، ولا يتصور أن يكون لأحد غيره تصرف، فهو الرب الممد لخلقه بالقوة والرزق والهداية والعطاء والنفع.

وأن كل ما سوى الخالق مخلوق، وأنت أيها الإنسان مخلوق من مخلوقاته.

وأن الخالق هو المالك لما سواه، وأنه يستحق أن يحكم في خلقه ويأمرهم بما يشاء، وأن يتصرف بمملوكاته ومخلوقاته كيف شاء.

وأنه قد أرسل رسلاً ليبين لنا عن طريقهم ما هي أحكامه وأوامره لنا، وأيدهم بالمعجزات التي تدل على صدقهم وأنهم مرسلون من عند الله، حتى نطمئن إلى ما جاؤوا به.

وأنه لا بد من يوم يحاسب فيه كل إنسان عن أعماله وقيامه بأوامر الله أو مخالفته لها، وقد أخبرنا الأنبياء الصادقون عن هذا اليوم الآخر، وما يكون فيه من نعيم أو عذاب.

فهذه الأمور وغيرها هي حقائق علمية موجودة وثابتة، من واجب كل إنسان أن يسعى لمعرفتها وأن يصل إلى الاقتناع بها، فإنه ما لم يسأل عنها، أو يتفكر حتى يصل إليها، أو يتعرف إليها من خلال الكتاب المنزل أو النبي المرسل؛ فلا يمكن أن تسير حياته على طريقة صحيحة، لأنه يخالف الحق ويبني حياته وتوجهاته ورغباته على غير الحقائق الثابتة.

وليس من علم التزكية أن نتكلم عن هذه الأمور وعن إثبات كونها حقائق وأنه يجب اعتقادها، وإنما هذا من علم العقائد، ولكن التزكية لا تقوم إلا على اعتقاد صحيح، ومن صفة المتزكي أنه يعلم هذه العقائد ويقتنع بها ويؤمن بها ويبني عليها، لذلك كان لا بد من التذكير بها، لأنها أصل لعلم التزكية، **والتذكير بها من التزكية.**

٢. اعتراف القلب وإيمانه بالحقائق الثابتة، وبناء الرغبات والإرادات القلبية عليها، ومعالجة الموانع القلبية:

إن معرفة الحقائق والاستيقان بها لا يفيد إذا لم يقتنع بها الإنسان ويقرَّ بها ويؤمن بها ويخضع لها، ولا يستفيد منها الإنسان إذا كان يستكبر عن قبول الحق، ولا يستفيد منها إذا كان يقرر بهواه أشياء يدعي أنها الحق بدلاً من أن يرجع بعقله إلى الله وشرعه، كما لا يستفيد منها إذا كان ينشغل بشهواته وينسى هذه

الحقائق، ومعالجة هذه الأمور التي تحول دون الاستفادة من الحقائق الثابتة؛ هي من علم التزكية، بل هي الأهم في علم التزكية.

والإيمان بوجود الله وألوهيته وربوبيته وحكمه وقدرته والإيمان بالرسول والقرآن والإيمان بالآخرة، والإيمان بكل حقيقة يُوَلِّدُ وينشئ صفاتٍ وإرادات في القلب، كالإخلاص والتوكل والشكر والصبر والخوف والرجاء، وإذا لم تنشأ تلك الصفات والإرادات فيجب على الإنسان أن يتعلم العقائد التي ترسخها في القلب والنفس، ثم يحرص على تذكرها، ثم يرغب بها ويَسْتَحْلِيها، ثم يتكلف تلك الصفات في قلبه ويعمل بناءً عليها.

وفي هذه المرحلة يتعرف الإنسان على أحوال القلب وصفاته السليمة، ويعرف الحد الأدنى الذي يجب أن يكون عنده منها، ويحاول أن يتصف به، كما يتعرف على أهم أمراض القلوب ويحاول معالجتها، وخاصة تلك الأمراض التي تحول دون الإيمان وقبول الحق.

٣. اجتهاد الجوارح في القيام بالأعمال الصالحة وحمل النفس عليها، وتكلف التخلق بالأخلاق الحسنة:

إذا صار القلب سليماً في توجهه ورغباته فمن الطبيعي أن يكون هو السبب في أن تنبعث وتندفع الجوارح والأعضاء من لسان وعين وسمع ويد ورجل وغيرها إلى أعمال صالحة ومعاملات سليمة وعلاقات مستقيمة، وإذا وجد ضعفاً وتقصيراً بسبب ضعف الدوافع القلبية أو بسبب بقايا أمراض ورغبات قلبية منحرفة؛ حمل نفسه على فعل الأعمال الصالحة وترك الأعمال الطالحة حَمْلاً، وجاهدها وأجبرها وصبَّرها، حتى تكون الجوارح معينة للقلب على التوجه نحو الحق، وحتى تساهم وتشارك الجوارح في علاج أمراض القلب، فتنعكس فوائد الأعمال على القلب وتزيده نوراً، وتخرج بقايا الظلمة منه.

ـ فإذا بذل الإنسان جهداً في التعرف على الحقائق الثابتة، ثم ألزم قلبه بها وأنشأ ميوله وعواطفه عليها، ثم بدأ يجاهد نفسه في التخلق بمقتضاها وفي إقامة العمل الصالح؛ فقد تحقق بخصائص مرحلة المبتدئ في التزكية، وقد أخذ من التزكية الحد الأدنى الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم.

المرحلة الثانية: تزكية السالكين:

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

وهي ثلاثة أمور أساسية:

١. رسوخ الحقائق الإيمانية في النفس وحضورها في الذهن والنفس وعند الأعمال:

بعد أن عرف المبتدئ الحقائق التي يجب أن يعرفها، وجعلها المحرك الأساسي له في حياته، فإنه لا يكتفي أن يجعلها مجرد اعتقادات مخزونة في الذهن، بل يجعلها حاضرة في ذهنه، من خلال نياته وخواطره وعباداته وأذكاره وآدابه ومعاملاته وعلاقاته، وسائر أعماله الظاهرة والباطنة، فتصير يقيناً، يحاول استحضاره في ذهنه وعند أعماله دائماً.

٢. التخلق بالصفات القلبية السليمة والأخلاق المحمودة بحيث تكون حالاً له، يتحلى به غالباً ويفقده أحياناً:

فيبدأ التخلق بصفات القلب السليم الناشئة عن الإيمان بصفات الله، فيتقلب بين ظهورها عليه تارة، وبين تَكَلُّفِها تارة، وبين الغفلة عنها أحياناً، ويسعى في علاج أمراض قلبه، حتى يتطهر منها ويقل أثرها عليه، ويتكلف دفع خواطر السوء التي تهجم عليه أحياناً، وبذلك يكون قد دخل في مرحلة المتوسط.

فكان في مرحلة الابتداء يُخلِص، ويتكلف الإخلاص دائماً، ويجد مشقة في دفع الرياء، وصار في التوسط بين أحوال: فقد يحس نفسه مخلصاً متحققاً بصفة الإخلاص بلا مشقة في استحضاره ودفع مشوشاته من الرياء والعجب، وتارة يغفل عنه، وتارة يحتاج إلى شيء من المجاهدة في استحضاره، ولا يكون متحققاً بمرحلة المتوسط ومنتهياً منها حتى يتحقق بصفة الإخلاص بلا مشقة ولا غفلة ولا حاجة إلى مجاهدة في استحضاره.

وكان في الابتداء يتوب عن بعض ذنوبه ويغفل عن التوبة كثيراً وخاصة عن ذنوبه الباطنة، فصار في التوسط كثير التوبة يحاول التوبة من كل ذنب صغير أو كبير، ظاهر أو باطن، لكنه قد يغفل عن التوبة أحياناً.

وفي بداية المرحلة الثانية يزداد تحققاً بالتوكل، فيذكِّر نفسه بعدم قدرة الأسباب على التأثير، فينمو فهمه وحاله في التوكل حتى يصير كثير الاعتماد على الله متوكلاً عليه في أكثر أموره، في عباداته وأمور دنياه، وسائر الأسباب، لكنه قد يغفل عن التوكل أحياناً، فيغلب عليه الالتفات إلى الأسباب.

وفي بداية المرحلة المتوسطة يتعمق في فهم معنى الزهد وما الواجب منه، وتزداد قدرته على التزهد ومدافعة الرغبات والشهوات الدنيوية، حتى يصير في نهاية المرحلة زاهداً إلى حد كبير، لا يكاد يميل إلى شيء من الدنيا وزينتها.

وهكذا في الصبر والخوف والرجاء والخشية والورع والرضا والطمأنينة والتواضع والحب وغيرها من أحوال القلب وصفاته وأعماله.

ـ وتزداد في هذه المرحلة مُلاحظةُ ما ينشأُ في قلبه من أمراض وأخلاق فاسدة، مع معرفته بوسائل علاجها، ومسارعته إلى التخلص منها والتحقق بما يقابلها من صفات سليمة، ويكون ذلك سهلاً عليه إلى حد كبير، كما أنه يلاحظ دقائق من أمراض القلب وعيوب النفس.

ـ وكان في مرحلة المبتدئ يتكلف العمل الصالح ويحمل نفسه عليه ويجاهد نفسه في فعله، ويكابدها في ترك المعصية ويجاهدها، فصار العمل الصالح مريحاً له مُزَيَّناً عنده مرغوباً فيه، لا يحتاج إلى تكلُّفِه ولا يتأخر عنه، وسَهُلَ عليه ترك المعصية فلم يعد يحتاج إلى مقاومة نفسية في تركها، بل كرهها ونفر منها.

٣. استقامة الجوارح غالباً على الأعمال الصالحة وترك المعاصي.

وعدم التكلف في الأعمال الناشئة عن الأخلاق الحسنة في التعاملات والعلاقات؛ فلا يجد مقاومة نفسية عند إقباله على صلاته أو ذكره أو قيامه الليل أو صيامه أو صدقته أو جهاده أو دعوته، وهكذا في سائر الأعمال، لكنه قد يتكاسل عن قليل من النوافل.

وكان في الابتداء يحاول التخلق بكل خلق حسن، فصارت الأخلاق أكثر ثباتاً عنده، وقاربت أن تكون سجية عنده لا كلفة فيها، لكنه قليلاً ما تغلبه طبائعه وغرائزه وبيئته فترده إلى بعض أخلاقه المذمومة.

المرحلة الثالثة: تزكية المتحققين الشيوخ:

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

وهي ثلاثة أمور أساسية، الأول متعلق بالعقل، والثاني بالقلب، والثالث بالجسد:

١. قوة الخبرة في الحقائق الإيمانية، وعدم غيابها عن الذهن:

فلم يعد يجد تكلفاً في استحضارها، فهي يقين مستقر عنده لا شك فيه، ولا تغيب عنه ولا تفارقه، يلازمها ويعيشها، ويعيش آثارها، فكأنه يرى الله في كل حين وعلى كل حال.

٢. التحقق بصفات القلب السليم والأخلاق المحمودة واستقرارها في النفس، وعدم وجود معارضة قلبية لها، واشتغال القلب بها، بحيث تصير مقامات له لا تغيب عنه أبداً، فتصير سجية له راسخة في نفسه، ويزول التكلف لها، ويصير حضورها في القلب دائماً قوياً لا يحتاج إلى مجاهدة، وتنتفي عنده خواطر السوء، فلا يكاد يخطر في باله إلا الخير والحق، ولا يعود للشيطان عليه سلطان ولا وسواس، في الجملة، وبذلك يكون قد دخل في مرحلة المتحقق.

فصار متحققاً بالإخلاص بلا مشقة في استحضاره، فلم يعد يحتاج إلى تكلُّف الإخلاص، ولا يأتيه خاطر الرياء والعجب والكبر.

ملازماً للتوبة لا تغيب عنه عند أي ذنب ظاهر أو باطن.

متحققاً بالتوكل، فلا يعمل عملاً ولا يتخذ سبباً إلا وهو منتبه أن الفاعل المؤثر فيه هو الله، فيعتمد على الله في كل أمره، في أعماله الدنيوية والعبادية، لا يغفل عن توكله مع أي سبب يتخذه.

متحققاً بالزهد، لا يجد كلفة في ذلك، فلا يجد ميلاً في قلبه لأي شهوة وزينة مهما صغرت، رغبته كلها في رضوان ربه وفضله وجنته.

متحققاً بالصبر والحلم، فكلما حضره موقف يتطلب الصبر والحلم ظهر صبره وحلمه.

وهكذا في الشكر والخوف والرجاء و الخشية والورع والرضا والطمأنينة والتواضع والحب وغيرها.

٣. تحقق في الاستقامة، فلا يتردد في خير ولا يتأخر عنه، ولا تعارضه فيه نفسه، لا في فريضة ولا نافلة، ولا يقع في معصية كبيرة ولا صغيرة إلا أن

يشاء الله شيئاً، لكنه قد تصدر عنه هفوات قليلة نادراً.

لم يعد يتكلف الأخلاق، فصارت سجية فيه، راسخة في نفسه، وتظهر آثار الأخلاق على جوارحه وفي أعماله ومعاملاته وعلاقاته، فلا يتردد في الصدق أو الكرم، ولا يجد كلفة في الحلم ورد دواعي الغضب، ولا تنازعه نفسه في الكبر بل تتواضع بلا مشقة، وهكذا في كل خلق يظهر أثره في المعاملات والعلاقات.

يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، ويجتهد في نفع عباد الله وهدايتهم، بالقدر الذي يستطيع أن ينفع غيره به.

ـ ونتيجة هذه الأعمال والصفات التي تتحقق بها نفس الإنسان في كل مرحلة؛ تظهر ثمرات وأمور كالرؤى المنامية، والفهوم العلمية، والأذواق الإيمانية، وعلوِّ الهمة، والقدرة على إرشاد الآخرين، وغير ذلك، مما سنفصل الكلام فيه عند بيان كل مرحلة.

لماذا قسمنا السير في التزكية في كل مرحلة إلى ثلاثة جوانب: عقلي وقلبي وجسدي

لا تتكامل التزكية في كل مرحلة، ولا في جملتها، إلا إذا كانت تشمل جوانب ثلاثة: منهج تزكية العقل والفكر، ومنهج تزكية القلب، ومنهج التزكية العملية الجسدية، وهذه الجوانب ينبني بعضها على بعض فالجسد تابع للقلب، والقلب تابع للعقل، وفيما يأتي بيان لمعنى المنهج، ثم كيف تتكامل في بناء التزكية وكيف ينبني بعضها على بعض.

أولاً: المقصود بالمنهج: هو الطريقة التي يسير عليها الإنسان معنوية أو مادية، عقلية كانت أو قلبية أو جسدية[1].

ثانياً: كيف يتولد الفعل عن القلب، وكيف يتولد ميل القلب عن إدراك العقل:

النفس التي نزكيها تتركب من الروح والعقل والقلب والجسد، لكن لما كان **التكليف الشرعي يتعلق بالعقل والقلب والجسد، ويتوجه الشرع بالخطاب إلى هذه العوالم الثلاثة** من عوالم النفس، فإن تزكية النفس التي أمرنا بها تقتصر على هذه الجوانب.

والناظر في النفس البشرية وكيف تتولد عنها الأفعال، يلاحظ أنها تدخل ضمن التحليل الآتي:

يندفع الإنسان إلى فعلٍ ما ـ سواء كان طاعة أو معصية أو مباحاً ـ لرغبته فيه، فالرغبة القلبية تُنشِّط الإنسان إلى الفعل وتحثُّه إليه، فيسهل العمل على الجوارح لِما وُجِد من ميل قلبي إليه وإلى نتائجه.

(١) والقول والكلام يدخل في الفعل الجسدي.

وهذه الرغبة القلبية تنشأ عن القناعة بوجود مصلحة فيه، فالإنسان بطبيعته يدور حول مصلحته يبحث عنها ويسعى إليها، وهذه المصلحة قد تكون مصلحة دنيوية، وقد تكون مصلحة أخروية.

ومن المصالح الدنيوية تحقيق حاجات الإنسان الضرورية أو التكميلية، فالحاجة إلى الشيء تدفع صاحبها إلى فعل ما، كحاجته إلى الطعام أو الشراب أو اللباس، وتحقيق الإنسان حاجاته هي من مصالحه.

وإذا قررنا هذه القاعدة فيفترض أن يتساوى الناس جميعاً في رغباتهم وسعيهم بأعمالهم لاستواء العقول في تقدير المصالح والمنافع، ولكن الواقع لا يدل على وجود هذا التساوي، وهذا لا يعود إلى عدم صحة هذه القاعدة، وإنما يعود إلى الاختلاف في تقدير المصالح أو معرفتها أو نسيانها أو غير ذلك، فقد يلتفت الإنسان إلى المصلحة الأقل دون الأكبر، جهلاً أو نسياناً أو لسبب آخر، وقد يَغفَل الإنسان عن النظر إلى مصلحة أكبر وينظر إلى مصلحة أصغر، كاللذة في الشهوة، فيفعل ما يحقق مصلحة صغيرة لكنه يفوِّت مصلحة أكبر، وفي هذه الحالة تعتبر المصلحة الصغيرة المتحققة بالنسبة إلى المصلحة الكبيرة الفائتة؛ تعتبر مصلحة مُتَوَهَّمَة لا حقيقية(١).

مثال ذلك في الأمور الدنيوية: لو أن شخصاً موظفاً تأخر في كل يوم عن عمله ساعات ليتمتع في بيته مع أهله وأكله ونومه، فذلك لذة ومنفعة ومصلحة له، لكنه بالنظر إلى أنه سيكون سبباً في طرده من عمله يصير

(١) ومن أجود ما كتب في موضوع المصلحة الحقيقية والمصلحة الموهومة ما كتبه: الإمام العز ابن عبد السلام في كتابه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، والإمام الشاطبي في كتابه «الموافقات»، وقد سبقهما في هذا العلم الإمام الغزالي، لكن كلامه فيه مختصر، وإن كان أساساً لمن بعده.

مفسدة، فلما فَوَّت مصلحة بقائه في عمله ظهر أن مصلحته ولذته فيما فعل كانت متوهَّمة لا حقيقية.

وكذلك الأمر في كل ما هو من المعاصي التي حَرَّمها الله، فإنها في الحقيقة مفاسد، بالنظر إلى مآلاتها ونتائجها في الدنيا والآخرة، وإن ظنها الإنسان مصالح ومنافع بالنظر القاصر الضيق.

ـ ولما كانت الأفعال كلُّها ترجع إلى الرغبات القلبية، والرغبات القلبية ترجع إلى تحقيق المصالح التي يدركها العقل، فالعقل هو البداية، التي يجب أن تبدأ الهداية والتزكية منه، بحيث **يستعمل** عقله الاستعمال الصحيح، وبحيث **يعرف** الأمور التي بها يدرك مصالحه الحقيقية الكبرى، ويسعى في تحقيقها.

وإذا أدرك الإنسان جميع المصالح الكبيرة والصغيرة، فعندئذ يحقق المصالح الصغرى بالقدر الذي لا يتعارض مع المصالح الكبرى، فإذا أدرك الحقائق الثابتة في الكون التي تُعرف بها المصالح الحقيقية الكبرى، فالمتوقع تلقائياً أن تنشأ الرغبات نشأة صحيحة، وينشأ عن هذه الرغبات إرادة نحو تحقيق أفعال صحيحة سليمة نافعة محقِّقَة للمصالح الحقيقية(١).

ـ وإنما أردت أن أنبه إلى هذه الأمر حتى يعرف القارئ أهمية الترتيب المذكور، فكثير من الناس يهتم بالتزكية فيما أمر الله به في حق الجسد، وعنده تقصير في بناء ميول القلب وأهوائه بناءاً صحيحاً فيُتعِب نفسه، ولا يكاد يستفيد، ومنهم من يُتعِب قلبه ويحاول إنشاء رغبات سليمة لكنه يجد معارضة، لنقص في تصوره للحقائق التي تصنع الرغبات وتُوَجِّهُ الخواطر، ولنقص في إدراك المصالح الحقيقية، والتي قد تتعارض مع المصالح القاصرة الصغيرة.

---

(١) وستجد تفصيل هذه الأمور وأدلتها في مواضعها من هذا الكتاب.

وهذا الحدُّ الذي ذكرتُه من العلاقة بين القلب والجسد والعقل، وكيف يُولِّد الأعمالَ والرغبات؛ قد توصَّل إليه كثير من علماء النفس غيرِ المسلمين وقرروه.

ولكن هذه النظرية لا تقتصر عندنا في الإسلام على ذلك، فقواعدها مقيدة بقواعدَ وسننٍ ربانية أخرى(١)، فمن تجاهل هذه السنن كان علم النفس عنده ناقصاً منحرفاً.

والخطأ الثاني الذي يقع فيه غير المسلمين في هذا الشأن؛ هو الخطأ في تقدير النفع الحقيقي من النفع المتوهَّم، وهذا الخطأ يأتي نتيجة الجهل ببعض الحقائق الإيمانية، كوجود الله ومعرفة حقه على عباده، وكحقيقة الجزاء فيما بعد الموت وانتهاء الدنيا، فمن لم يصل إلى معرفة هذه الحقائق سيكون كل نظره إلى النفس ومنافعها مختلفاً تماماً عمن عرفها.

ترتيب هذه الموضوعات في مرحلة المبتدئ:

سيكون ترتيب الكتاب لمرحلة المبتدئ أن نتحدث أولاً عن المنهج العقل الفكري ثم المنهج الجسدي العملي ثم المنهج القلبي، ونجعل بين الجسدي والقلبي الكلام عن المعاملات والأخلاق والآداب.

وذلك أن سير الإنسان يبدأ من عقله وفكره، بسعيه إلى معرفة الحقائق، فينشأ عن ذلك في القلب يقظة ورجوع إلى الله، ورغبات سليمة وإرادة

(١) مثل سنة الله في أن من ترك حقيقة من الحقائق فإنه لا يهدى إلى الحقائق الأخرى ويبقى متردداً فيها، ومثل سنة الله في أن للذنب ظلمة تقع في القلب، قد تجعله لا يستقبل من العقل هدايته ومعرفته وتمييزه، وغير ذلك مما سنبينه في مواضعه من هذا الكتاب في مراحل التزكية المختلفة.

جازمة ومجاهدة، وهذه الأمور القلبية ينشأ عنها الأعمال الجسدية من عبادات ومعاملات ومظاهر الأخلاق، فأتحدث عن هذه الأمور القلبية قبل الكلام عن تزكية الجسد، ثم أتحدث عن تزكية الجسد لأن الله تعالى جعل العبادات سبيلاً لتذكير القلب بما يُنشئ أحواله السليمة، فكما أن للقلب أثراً في صلاح الجسد، كذلك عبادات الجسد ترجع بأثر طيب على القلب، وترك المعاصي يمنع الأثر السيء عن القلب، ثم إن المبتدئ ضعيف النظر إلى قلبه لا يحسن التعامل مع قلبه وخواطره وأحواله؛ وقدرتُه على الانتباه إلى جسده وأعماله أكبر، فقدمت الحديث عن الجسد وأعماله من عبادات ومعاملات وآداب، لِيُتَوَصَّلَ من خلال ذلك إلى تقوية أحوال القلب، وأخرت الحديث عن تزكية القلب وأحواله الواجبة، لأن أحوال القلب لا توجد مع الغفلة، ولا تذهب الغفلة إلا بوجود العبادات الظاهرة، من ذكر وقراءة قرآن ومجالسة الصالحين وسائر أنواع العبادات.

المقدمة الخامسة

تشخيص حالة الإنسان
في أي مرحلة هو من التزكية؟

المقدمة الخامسة

تشخيص حالة الإنسان في أي مرحلة هو من التزكية؟

قبل أن ننتقل إلى بيان هذه المراحل وما تختص به كل مرحلة، وما يتعلق بها من منهج فكري علمي، وحال قلبي، ومسلك عملي، وما يعين على التحقق فيها، وما يعيق عنها، ومتى يكون الإنسان متحققاً بها؛ فإنه من الحري أن يختبر الإنسان نفسه ليعرف كم هو تحصيله من التزكية(١).

لذلك فقد اجتهدت في وضع جدول فيه بعض التفصيلات المتعلقة بكل مرحلة، يعين على معرفة المراحل وخصائصها وأعمالها، ويستطيع المسلم من خلاله أن يعرف إلى حد كبير كم هو حظه من التزكية وفي أي مرحلة هو، أو إلى أي مرحلة هو أقرب.

وهذه المراحل ليست حدية قطعية، وإنما هي توصيف لغالب حال

---

(١) والإنسان لا يخفى عليه حاله، ولا يخفى عليه الحق، ولا يستطيع أن يغش نفسه ولو تعذَّر وبرَّر، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ❁ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٢-٨٣]، فالإنسان لا يخفى عليه الحق لكنه ينكره، وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ❁ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]، مما قاله الطبري في تفسير هاتين الآيتين ج١٢، ص٣٣٥-٣٣٦: «عن قتادة قوله ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه... وقوله: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾... فقال بعضهم: معناه بل للإنسان على نفسه شهود من نفسه ولو اعتذر بالقول مما قد أتى من المآثم وركب من المعاصي وجادل بالباطل... عن مجاهد قوله: ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ❁ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو جادل عنها فهو بصيرة عليها... عن الحسن ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ لم تقبل معاذيره... عن قتادة قوله ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ قال: ولو اعتذر» وقال الطبري: «ولو جادل عنها بالباطل واعتذر بغير الحق فشهادة نفسه عليه به أحق وأولى من اعتذاره بالباطل».

السالكين، فقد يكون الإنسان متحققاً بأوصاف مرحلة لكن عنده وصف أو أكثر من أوصاف مرحلة أخرى.

وإذا أراد أحدنا أن يعرف حاله ومستواه؛ فليضع إشارة (صح) في الجدول عند الصفة الموجودة فيه، ثم ينظر أي الجداول كانت إشارته فيه أكثر؛ فيكون أقرب إلى تلك المرحلة وصفاتها وخصائصها وأعمالها، والله أعلم.

جدول لتقييم مدى تزكية النفس

الخصائص الظاهرة والباطنة والصفات والأعمال والأحوال	مرحلة ما قبل التزكية أهل الكفر والعصيان والغفلة	خصائص المرحلة الأولى: مرحلة المبتدئ في التزكية [الطالب] أهل الإسلام والأعمال	خصائص المرحلة الثانية: المتوسط [السالك] أهل الإيمان والقلوب	خصائص المرحلة الثالثة: المتحقق [الشيخ]أهل الإحسان والقرب من الله
نظرته إلى التزكية	لا يهتم بتزكية نفسه ولا يبالي بها	وجدت لديه قناعة بأهمية التزكية، وشعر بضرورتها، ورغب في معرفة طريقها، وبدأ يجتهد في الاستقامة على أعمال الشريعة الظاهرة، وتطلع لأنْ يكون من الصالحين	ثبت في طريق التزكية، مع حضور هدفه ومقصده في ذهنه وقلبه	تحقق بأوصاف التزكية وحقق أهدافها في الجملة، وتطلع لأن يكون من الصديقين والمقربين
استعمال العقل	لا يستعمل عقله في معرفة ربه ولا فيما ينفعه في آخرته، لا يستعمله إلا لدنياه وشهواته	فكر بعقله وتوصل إلى القناعة العقلية بالحقائق الكبرى في الكون، كحقيقة وجود الله، وأنه الخالق المالك، وأن حق الحكم لله، وأن حكم الله قد وصلنا عن طريق الرسول، وأن الرسول صادق مؤيد بالمعجزات، وأننا محاسبون على أعمالنا في اليوم الآخر	يتوصل بفكره إلى حقائق أخرى، تترسخ في نفسه ويهتم بها: كحقيقة أن المشيئة والقدرة والتصرف لله في ملكه، وأن الحول والقوة والتأثير والعطاء والمنع والهداية والرزق والنفع والضر كلها بيد الله، وأن الله رحيم كريم تواب عفو، وأن الله قوي عزيز منتقم جبار، وتحقق من هوان الدنيا، وعظمة الاخرة، وتكون هذه الحقائق يقيناً عنده حاضرة في ذهنه، مؤثرة في حياته وأعماله القلبية والجسدية	قوة الخبرة في الحقائق الإيمانية، وعدم غيابها عن الذهن، بحيث لم يعد يجد تكلفاً في استحضارها، والعلم على أساسها، ويكون حاله كأنه يرى الله في كل حين وفي كل حاله

طلب العلم	لا يحرص على طلب العلم الشرعي النافع في الآخرة	يحرص على طلب العلم الشرعي وما ينفعه في آخرته، وخاصة في تعلم عقيدته وفقهه وتزكيته، ولو بشكل مختصر، ويهتم بمعرفة الفرائض ليعمل بها والمحرمات ليجتنبها	يحرص على كل علم يزيده قرباً إلى الله ومعرفة بالله، ويتعلم علم ما له علاقة بأحواله وقلبه وسيره إلى الله	يحرص على علم ما يزيده معرفة بالله، ويحرص على تعلم ما ينفع غيره من خلق الله
وجهة القلب	غافل، أو معرض عن الحق، مريد للشر، محب للشهوات	يرغب في الخير والحق والطاعة، ويريد وجه الله والنجاة في الآخرة، يكره السوء والباطل والمعصية، لكنه قد تكون له ميول توقعه في المعصية أحياناً	يتقي الله حق تقواه ويتحرى الحق في أدق تفصيلاته، ويتحرى الصدق مع الله في التقرب إليه، يتجرد عن كل شهواته	متحقق في إرادة وجه الله، لا يهوى إلا ما يريد الله
أحوال القلب	ليس في قلبه من معاني الإيمان وأحواله شيء، فلا إخلاص لله في قلبه، ولا حب ولا خوف ولا غير ذلك	تولد عنده من استعمال العقل والفكر الإيمان بالله ويتولد معه بعض الأحوال الإيمانية: كالخوف من الله والتوبة إليه، والرجاء له، ويبدأ يتكلف الالتفات إلى الإخلاص والحب لله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والمجاهدة لشهوات النفس ورغباتها	تقوى همته وأحواله القلبية السليمة، ويتخلق بها ويتكلفها أحياناً ويفقدها أحياناً قليلة، حتى يتحقق بالتوبة والإخلاص والتوكل والخوف والخشية والرجاء والصبر والشكر والزهد والورع والحب والمعرفة والطمأنينة، وقد تغلبه أحواله القلبية إذا لم يقيدها بالعلم والحكم الشرعي	تحقق بصفات القلب السليم، حتى لم يعد يجد معارضة قلبية لها ولا يحتاج إلى تكلفها، وتصير هذه الأحوال مقامات مستقرة عنده سجية راسخة في نفسه، مع قدرته على التحكم بها وإخفائها

الإخلاص	لا يهتم به	يحرص عليه ويتكلفه وقد ينازعه الرياء والشرك الخفي أحياناً في عباداته	يقدر على الإخلاص في طاعاته، لكنه قد يفوته الإخلاص في بعض العادات	يلتفت إلى الإخلاص في سائر أوقاته وأعماله، من عباداته ومعاملاته، ولا مشقة عنده في استحضار النية وتحرير المقصد
الذكر والمراقبة	لا يعرفهما	يكثر ذكر الله، ويحاول أن يكون دائم الذكر لله تعالى، في أوقات فراغه، على ضعف في حضوره ويراقب الله في أحكامه، فينتبه في كل وقت وظرف إلى حكم الله وأمره ومراده	دائم الذكر لله، قوي الحضور، ينتبه إلى أحكام الله وينتبه إلى أن الله يسمعه ويراه ويراقبه ويحصي عليه، فيتصرف متأدباً مع الله وجلاله	لا يكاد يغفل عن الله، مع أنس بالله وهيبة منه متمكن من المراقبة يخاف مقام ربه ويقدره قدره ما استطاع
أمراض القلب	كثيرة عنده ولا يلتفت إلى إصلاحها	لا يخلو من أمراض القلوب، وليس عنده كثير انتباه إلى إصلاحها، وهو ضعيف القدرة على علاجها، مع رغبته في التخلص مما لا يرضي الله	مهتم بعلاج أمراض القلوب، يجاهدها ويتكلف علاجها حتى يتخلص منها، فيتخلص من الرياء والكبر والغرور والحسد والتعلق بالدنيا والغفلة واتباع الهوى والخواطر السيئة وغير ذلك	طاهر من أمراض القلوب في الجملة، فلا سبيل لها إلى قلبه

الأعمال الجسدية من:	المعاصي	تكثر عنده المعاصي كالنظر المحرم وأكل المال الحرام والكلام الباطل وربما الخمر والزنا وغير ذلك	يحذر من المعصية ويقع فيها أحياناً، ويسارع إلى التوبة عند ذلك، ويلوم نفسه ويندم	تندر منه المعصية	لا يقع في معصية كبيرة ولا صغيرة إلا أن يشاء الله شيئاً، لكنه قد تصدر عنه هفوات قليلة نادراً، ويكون سريع الرجوع إلى الله
	الطاعات	لا يهتم بفعل الصالحات والطاعات	يحرص على الطاعات ويجتهد في إقامتها وخاصة الفرائض، ويحمل نفسه على فعل النوافل	مستقيم على أعمال الشريعة، يملؤ اوقاته بالطاعات والنوافل بعد الفرائض، ولا يجد مقاومة نفسية عند إقباله على صلاته وذكره وقيامه الليل وصيامه وصدقته وجهاده ودعوته، ولكنه قد يتكاسل عن قليل من النوافل	تحقق في الاستقامة فلا يتردد في خير ولا يتأخر عنه، ولا تعارضه فيه نفسه، لا في فريضة ولا نافلة، يحرص على متابعة النبي ﷺ في كل أمره في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه ودعوته وجهاده وظاهره وباطنه
	المباحات	تشغله أعمال الدنيا	يأخذ من الدنيا حاجته وضرورته ولا ينشغل بها عن الله وطاعته، ويستعمل دنياه فيما يقربه عند ربه	كالسابق لكنه يزيد من إنفاق الدنيا في آخرته ودعوته	جعل كل دنياه لآخرته

الأوراد	ليس له أوراد يتقرب بها إلى الله	يجعل لنفسه أوراداً يومية أو أسبوعية أو شهرية من الصلاة والقيام والقرآن والذكر والصيام والصدقة والتفكر وتذكر الآخرة، وغير ذلك، ويحرص عليها	يحرص على أوراده ويتحرى الخشوع فيها والتدبر واستحضار فيها معنى العبودية لله والذلة والانكسار والحب	يحرص على أوراده والعبودية فيها والحضور مع الله فيها، ويصير سريع الحضور قوي التدبر عميق الفهم شديد الخشوع رقيق القلب قريب الدمعة
المجاهدات	لا يهتم بها	يجاهد نفسه في ترك المعاصي وترك المال الحرام والكلام السيء والطعام الكثير والنوم في الأوقات المباركة	يخالف نفسه في شهواتها وأهوائها كلها، ويترك الشبهات، ويوافق حكم الله وإذنه في كل شيء، يزهد في الدنيا ويَعِفُّ عما ليس له، يجاهد نفسه ألا يفوته وقت إلا في نفع وطاعة وذكر	ساكن لا يغضب لنفسه ولا يتحرك بشهوتها، يجاهد نفسه في ترك الدعاوى والغرور، حتى يصير غافلاً عن النظر إلى مقامه وعمله، مستغرق في عبوديته، يجاهد خواطر نفسه، فلا يقبل إلا خاطر الخير والحق
الأخلاق	لا يحرص على الأخلاق إلا ما يحقق له مصالح دنيوية غالباً	يتكلف التأدب بالأخلاق الحسنة، كالصدق والكرم والحلم والتواضع والعدل والعفة وغيرها، يجاهد نفسه في التأدب بها، ويحرص على التعامل مع الآخرين على أساسها	تتوافق أخلاقه الظاهرة مع ما يبطن، وتصير الأخلاق أكثر ثباتاً عنده، وتكاد تكون سجية عنده لا كلفة فيها، لكنه قليلاً ما تغلبه طبائعه وغرائزه وبيئته فترده إلى بعض أخلاقه المذمومة	لم يعد يتكلف الأخلاق، فصارت سجية فيه، راسخة في نفسه، وتظهر آثار الأخلاق على جوارحه في عباداته وأقواله وأعماله ومعاملاته وعلاقاته

الشيخ والعالم والصاحب	يصاحب أهل السوء والغفلة والدنيا، ولا يحرص على الصحبة الصالحة، ولا يحبهم	يحرص على الصحبة الصالحة ويحبهم في الله، ويحب قراءة قصصهم، ويترك أصحاب السوء، وقد يجالسهم أحياناً عن غفلة، يبحث عن شيخ صالح عالم مُرَبٍّ، ويلازم دروسه، ويطيع نصائحه، ويقتدي به	يحرص على صحبةِ مَنْ هُم مِثلُه في الحال، ويتجنب صحبة من دونه، وينزعج من مجالسة أهل السوء، يحرص على صحبة الشيخ الأرقى علماً وحالاً، ويراجع شيخه ويذاكره في أحواله ومناماته ومعيقات سيره	يبقى متواضعاً لشيوخه معترفاً بفضلهم عليه، يشاورهم في أموره، ويذاكرهم في مقاماته ومعارفه، ويتعاون مع أصحابه على الخير والبر والتقوى
خواطر المَلَك والشيطان	لا يجد إلهامات من المَلَك، والشيطان يوسوس إليه بالشر والمعصية، ويتبعه ولا ينتبه إلى أن الشيطان عدوَّه هو الذي يوسوس إليه بذلك	تزداد خواطر الخير عنده، ويجد في نفسه حديثاً بالخير والطاعة ومعاني الهداية يحاول أن يكون حذراً من خواطر الشر التي تأتي من نفسه ومن الشيطان، فلا ينساق وراء الوساوس حتى يتأكد من كونها خيراً، لكنه قد تغلبه الوساوس فتزين له المعصية وتوقعه فيها، وقد تثير عنده شبهات وشكوكاً تفسد عليه ذكره وخشوعه	تكثر إلهامات الخير عنده، ويستطيع التمييز بين خواطر الخير والشر، ويرد كل خاطر سوء وينكره في قلبه، ولا يتبع خطوات الشيطان، ويحذر من مداخل الشيطان وتلبيساته	تلازمه إلهامات الملك في كل أحواله، وتشكل سبباً مهماً في هدايته وحفظه على الحق، يحفظه الله من كيد الشيطان، ويذهب عنه وسوسته، وإذا وسوس له الشيطان زاده تبصرة وانتباهاً

من ثمرات عمله	يجد الخذلان ومزيد الغواية ويُشغل بالدنيا والشهوات عن الله وطاعته	يجد توفيقاً إلى الخير، وراحة نفسية وتكثر رؤاه المنامية غالباً، وقد يبتليه الله بمن حوله فيذمونه، اختباراً لصدقه	يجد تيسيراً وتسهيلاً في أمور الدنيا، ورزقاً من حيث لا يحتسب، ويجد مزيداً من الهداية، وفهماً في دين الله، وتزداد إحساساته القلبية كالإلهام والفراسة والبصيرة وحلاوة الإيمان، وتظهر أحواله الإيمانية، ويرى رؤىً صالحة مبشرة ودالة على مزيد من الخير	يتحقق برتبة الولاية وكرامة أهلها، مستقيماً، متحققاً في مقامات التزكية، مع قدرته على الاستفادة من أحواله وإحساسات قلبه دون أن يُشعر من حوله بوجودها عنده، ويصير أهلاً للمشيخة والتربية، يكرمه الله بالحكمة والحلم والرحمة والقدرة على دعوة الخلق وإرشادهم وتربيتهم مع الترفق بهم والشفقة عليهم
شأنه في الدعوة	لا يهمه الإصلاح وقد يكون مريداً للإفساد	منشغل بنفسه عن دعوة غيره، لكنه إذا وجد مجالاً لنصيحة المسلمين أو لأمر بمعروف أو نهي عن منكر فَعَل	كالأول، لكنه يصير أكثر نصحاً وأمراً ونهياً، لما يؤيده الله به من الشجاعة والفهم والرغبة في الخير	يحرص على تعليم الخلق ودعوتهم وهدايتهم ونصحهم ونفعهم، بحسب أهليته في ذلك، ويصبر على ذلك، ويبذل جهده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، حريص على المؤمنين، متحرق على الأمة وأحوالها، جريء في الحق مع الحكمة

فهرس الموضوعات

المقدمة الرابعة

المنهج العلمي والأساس الشرعي لهذا الكتاب

المقدمة الخامسة

تشخيص حالة الإنسان في أي مرحلة هو من التزكية؟